المؤسسة المصرية الروسية
للعلوم والثقافة
www.a.rfcs.org

الأمين

# آباي

## كتاب الأقوال

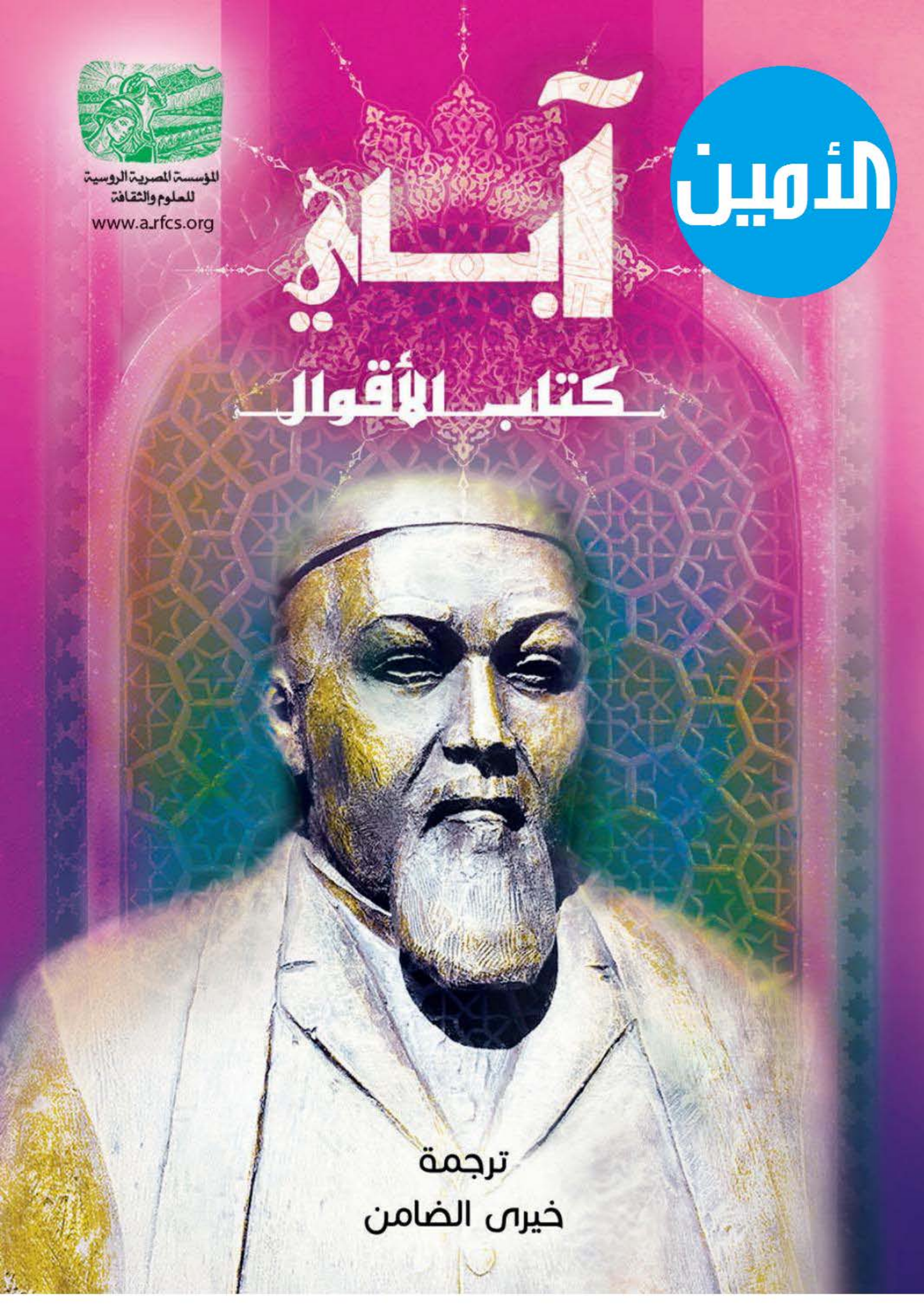

ترجمة

خيرى الضامن

الناشر
المؤسسة المصرية الروسية
للثقافة والعلوم

رئيس مجلس الإدارة
د. حسين الشافعي

المراسلات
القاهرة – مدينة العبور
44971 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي
ص. ب. 72
Tel. & Fax:
(+2) 02 - 24698170 & 8071
E-mail:info@a-rfcs.org

ترجمة
خيرى الضامن

الإخراج الفني
مى مجدى

لوحة الغلاف
تمثال آباى من أعمال الفنان
أسامة السروى
حديقة الحرية والصداقة- قصر النيل- القاهرة

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور – القاهرة
Tel. & Fax: (+2) 0100 6 44 00 11

الطبعة الثانية 2017
الطبعة الأولى 2014

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.
لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب
إلكترونياً أو ضوئياً
دونما إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع
2016/20911

آبای قونانبای

آباي
كتاب الأقوال

# كلمة في تراث آباي

آباي (إبراهيم) قونانباي شاعر كازاخي عظيم ومفكر ومنوّر وضع اسس الأدب الكتابي الكازاخي القومي. ولد في العشر من أكتوبر ١٨٤٥م في عشيرة توبيكته البدوية بمحافظة سيميبالاتينسك الواقعة في جبال جنكيز.

تلقى إبراهيم منذ نعومة اظفاره تعليما أدبيا وانسانيا عميقا، فاحب الكتب والشعر متأثرا بوالدته أولجان وجدته زهرة اللتين كان حبهما له منارا يهديه سواء السبيل. والدته هي التي حورت اسمه إبراهيم وأخذت تسميه آباي للتدليع، خاصة وان هذه الكلمة تعني بالكازاخية "المتأمل الحذر". وفيما بعد اتخذها الرجل اسما ادبيا له.

بدأ في سن مبكرة يطلع على الأدب الشعبي ويدرس في البيت على يد احد الملالي، ثم واصل الدراسة في مدرسة الإمام أحمد رضا بمدينة سيميبالاتينسك فأطلع على الأدب العربي والفارسي وقرأ أفضل نتاجات شعراء الشرق مثل الفردوسي ونظامي وسعدي وحافظ الشيرازي وغيرهم. وتركت آراؤهم الإنسانية أثرا عميقا في نفس آباي وفي تكوين آرائه.

تراث آباي الفكري شعري تمثله قصائده وملاحمه وتراجمه الشعرية الفريدة ونثري يمثله كتاب "الأقوال" ورسائله العميقة.

ومن أهم نتاجاته الشعرية ملحمة "مسعود" (١٨٨٧م) وملحمتا "الإسكندر المقدوني" و"ملحمة العظيم" التي تجسد موقفا مميزا من الثقافة الشرقية العريقة. وفي ملحمة "الإسكندر" يستنكر آباي جشع الغازي ويقابله بحكمة العقل المتمثلة في ارسطو. اما "ملحمة العظيم" فهي محاولة اصيلة لمعالجة حبكات التراث الأدبي الكلاسيكي الشرقي. فيما يعلل آباي في ملحمة "مقصود" ضرورة امتلاك ناصية المعارف.

وكان آباي المجدد قد ادخل اشكالا لم تكن معروفة سابقا في الشعر الكازاخي. فهو ظل متقيدا باسس نظم القصيد الكازاخي، الا انه تمكن ان يكتشف سبلا جديدة للإستفادة الواسعة من امكانيات اللغة الكازاخية الأم. وجعلت قصائد آباي الشعر الكازاخي أكثر غنى من ناحية التنوع في الصياغات والموضوعات.

يتميز شعر آباي بأكبر قدر من البساطة التي تقربه من السهل الممتنع إلى جانب روعة الأسلوب الفني الذي يجسد المهارة والتفنن والموهبة الشعرية الأصلية. وإلى ذلك كان آباي ملحنا لأشعاره وأشعار غيره يتحلى بذوق موسيقي رفيع واطلاع واسع على الموسيقى الشعبية.

تراث آباي الذي يمثل قمة في الشعر الكازاخي هائل عظيم. ويحتل مكانة مميزة في هذا التراث كتابه النثري "الأقوال" الذي عرض فيه آراءه الأخلاقية والفلسفية والإسلامية. "كتاب الأقوال" ثمرة التأملات العميقة والإرهاصات المقلقة والطموحات النفسانية النبيلة، الصياغة اللغوية الدقيقة والعبارات البليغة وصدقية الكاتب العميقة ونزعته الإنسانية وطموحاته المتسامية وحكمته المؤثرة كل ذلك يضع "كتاب الأقوال" في مصاف أعظم نتاجات الفكر البشري الأدبية.

المضمون الأساسي لـ "كتاب الأقوال" يدور حول تأملات الكاتب عن مغزى الحياة ورسالة الإنسان وعن الشعب المعذب. وكان آباي متيما بشعبه، ولذا جاءت كلماته تئن بالألم لآلام الشعب في ذلك العصر العصيب. فكان يدعو بحماس شديد إلى التخلص من الذنوب العيوب الموبقات التي تحط من كرامة الإنسان، ويناشد الناس أن يتساموا ويطمحوا إلى ارتقاء ذري الكمال الروحي في المقام الأول. ويطالبهم بأن يسلكوا طريق المعرفة ويمتلكوا ناصية الصنائع والفنون ويأخذوا عن الشعوب الأخرى ما لديها من انجازات في هذه المجالات. فلا يمكن احتلال الموقع اللائق بين شعوب العالم العظيمة الا عن هذا الطريق.

ابداعات آباي قونانباي اليوم ملك للبشرية جمعاء. وهي تخدم قضية نبيلة سامية، قضية التقارب بين الشعوب والحضارات. تراث آباي الذي يفوق التقدير منشور بستين لغة من لغات العالم.

**خيرات لاما شريف**
**سفير جمهورية كازاخستان في المملكة العربية السعودية**

الأقوال

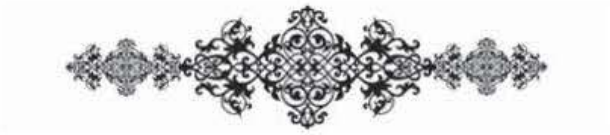

# بسم الله الرحمن الرحيم

## القول الأول

دخلتُ معترك الحياة وذقت حلوها ومرها. سرت على الدرب طويلا، حتى بلغت من الكبر عتيا، خائرا منهوك القوى. مللت من متاعب الدنيا وزهدت في ملذاتها. وجدت كل ما فيها زائلا فانيا عقيما، وتيقنت من وضاعة الوجود. فيم اشغل نفسي وكيف اعيش بقية عمري؟ انا حائر لا اجد جوابا يشفي الغليل.

هل آخذ زمام القيادة وأحكم في الناس؟ كلا، الناس لا تنصاع لحكم حاكم او أمر آمر. فليتحمل هذا العبء الثقيل من يرغب في كسب داء عضال، وليضطلع به فتى متحمس لا يزال ساخن الفؤاد. اما انا فأعوذ بالله من عبء لا طاقة لي به.

هل ارعى الماشية؟ كلا، لا جدوى من هذا العمل. فليمارسه الابناء طالما هم في حاجة الى الدواب. لن اعكر صفو بقية ايامي في السهر على الماشية من اجل نفع المنتفعين واللصوص والمتسولين.

هل انهل من منابع العلم؟ كيف ابلغها وما من احد اتجاذب معه اطراف الحديث في العقل والذكاء؟ فلمن انقل المعارف التي كدستها وممن اسأل عما اجهله؟ ما جدوى المسطرة والفرجار في سهب خال؟ من يشتري بضاعة البزاز في غياب الخياط؟ المعارف تفرز المرارة وتجلب الشيخوخة قبل الاوان، فلن تجد من يشاطرك الافراح والاتراح.

ام اكرس نفسي للعبادة والفقه؟ اخشى الا اوفق في هذا المحراب. فهو يستوجب الدعة والاستقرار. وانا لا اعرف الهدوء والاطمئنان لا في البدن ولا في الوجدان. فأي تقوى بين هؤلاء الناس، في هذه الانحاء؟!

ام اسهر على تربية الاطفال؟ انا عاجز عن هذا العمل ايضا. بودي ان اربيهم لكنني لا اعرف كيف. ماذا اعلمهم؟ اية حرفة؟ ولأي غرض؟ ولأجل من؟ كيف ارشدهم واوجههم وانا لا ارى مجالا للانتفاع من معارفهم؟ ولا اجد لنفسي منبتا في هذا البستان.

واخيرا استقر رأيي على رفقة الحبر والورق، لاسجل افكاري وخواطري وارتاح. وإن وجد أحد فيها قولا يغنيه ويرضيه فليسجله او يحفظه عن ظهر قلب. وان لم يجد الناس نفعا في اقوالي وغنى في خواطري فستبقى لي وحدي.

ولا شاغل يشغلني عنها بعد الآن.

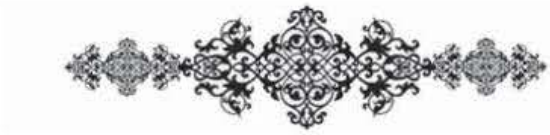

# القول الثانية

في طفولتي سمعت الكازاخيين يسخرون من الاوزبكيين قائلين: يا من نسيتم محيا الشجاعة المليح ورافقتم الجبن والهلع حتى صرتم تخشون ظلكم، لماذا تستقبلون القادم بصدر مفتوح وتستغيبونه حالما يروح؟

وعندما يلتقي الكازاخيون التتر يتهكمون عليهم ويلسعونهم بسوط الملامة ملصقين بهم تهمة الخوف من ركوب الابل وسوء الفروسية والتعب من السير على القدمين بل ولا يبخلون عليهم حتى بنعت البلادة والغباء.

ويقول الكازاخيون عن الروس: يا لسذاجة هذه الرؤوس الشقراء، حالما يرى الواحد منهم قرية كازاخية يهرع اليها ناسيا مقومات العقل والرشاد، راغبا في سماع الاراجيف والاشاعات والترهات، مصدقا كل ما يقال.

وفكرت آنذاك بفخر واعتزاز: "الحمد لله. الكازاخ خير امة اخرجت للناس". وشعرت بالارتياح والانشراح لما سمعته الاذن ورأته العين.

اما الآن فلا اجد نبتة الا وهي من غرس الاوزبكيين، ولا ارى صقعا لم تطأه اقدام الباعة الاوزبكيين ولا تقع يدي على مصنوع الا وهو من عمل الصناع الاوزبكيين. يعيشون في إلفة ووئام ولا ينشدون الحزازات والخصام. وكانوا، قبل وصول التجار الروس، يزودوننا بثياب الاحياء واكفان الموتى، ويشترون ماشيتنا بالجملة عندما يتشاجر الابن مع ابيه طمعا بها. وفي ظل الحكم الروسي بادر الاوزبكيون قبل غيرهم الى تبني المستجدات والمستحدثات. ولذا تجد بينهم البكوات والوجهاء والملالي وعلماء الدين، وترى عندهم الحذاقة والمهارة والابهة والوفرة والتأدب والتقوى.

وأرى الى التتر فأجد بينهم جنودا مغاوير ورجالا لا يلين لهم عود في مواجهة الصعاب، يتقبلون الموت بهدوء وسكينة، ويحرصون على المدارس والكتاتيب ويلبون داعي الدين ويجيدون الكدح والعمل وكسب الثروة، ويحبون الزينة والثياب ويقبلون على المرح والالعاب بين الرفقة والأصحاب.

اما نحن الكازاخيين فنعمل في خدمة بكواتهم وباياتهم بابخس الاثمان. وهم اذا دخل وجيه منا دارهم طردوه قائلين: "هيه، يا كازاخ، هل كنسنا ارض بيتنا لتدوس عليها بجزمتك الوسخة؟".

قوتهم تكمن في اقبالهم على تعلم الحرف والصنائع والكد بلا كلل، فلا يضيعون الوقت جزافا في النزاعات والمشاحنات المهينة.

اما عن الروس المتنورين النبلاء فحدث ولا حرج، ولا وجه للمقارنة بيننا وحتى بين خدمهم.

كيف تبدد تباهينا وتلاشى زهونا؟

وكيف خفتت ضحكاتنا المرحة؟

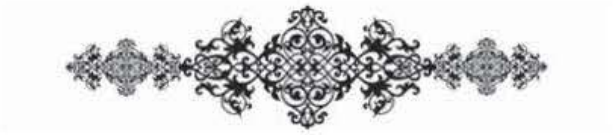

# القول الثالث

ما سبب تشتت الكازاخيين وتناحرهم والتنافر بينهم؟ ما سبب الرياء في اقوالهم والتهاون في افعالهم؟ ما دوافع حبهم للتسلط والتحكم في رقاب الناس؟

حكماء الدنيا لاحظوا من زمان ان الكسول المتهاون جبان خائر العزيمة وجهول بليد في اغلب الاحيان. والجهول لا يعرف معنى الكرامة والشرف، ومن لا كرامة له جشع يطلق العنان لأهوائه ورغائبه، ولا يجد السبيل الى الموهبة والنباهة، ولا يتمنى الخير للآخرين.

وأصل هذه العلل والعيوب انشغال الناس بأمر واحد، هو التسابق على حيازة المزيد من رؤوس الماشية حتى يكسبوا التقدير والاحترام. ولو انشغلوا بالفلاحة والتجارة وسعوا الى طلب العلم ومارسوا الفنون لما حدث ما حدث.

الآباء يضاعفون القطعان جاهدين لجعلها تتكاثر عند الابناء حتى يوكلوا رعايتها فيما بعد الى الرعاة وينصرفوا لحياة البطر، فيأكلوا اللحم لحد التخمة ويشربوا اللبن مرتوين ويتمتعوا بالغواني ويمتعوا الانظار بسباق الخيل.

وفي آخر المطاف تضيق بهم خيامهم ومراعيهم فيتذرعون بكل الحجج والذرائع ويستخدمون نفوذهم ومكانتهم لينتزعوا اراضي الجيران بالشراء او الاقتناء او السلب والنهب والعدوان. ويعمد هؤلاء الجيران المظلومون، بدورهم، الى البطش بجيرانهم او يضطرون الى مغادرة الديار. فهل بوسع هؤلاء الناس ان يتمنوا الخير لبعضهم البعض؟ كلما تكاثر الفقراء بخس ثمن الاتعاب. وكلما تزايد البؤساء تكاثرت المراعي الخالية. الرجل ينتظر خراب بيتي وانا انتظر خراب بيته. وبالتدريج يتحول النفور المستور الى عداء سافر لا هوادة فيه. وتتجذر الاحقاد، ونشكو بعضنا بعضا الى المحاكم ونتحزب ونتشرذم ونشتري ذمم المؤيدين من ذوي الجاه والمتنفذين ونتكالب على كسب رضا اصحاب المناصب حتى نتفوق على الخصوم.

والمغلوب هو ايضا لا يجد ويجتهد لكسب العيش والثروة بسبل اخرى، ولا يهتم بالتجارة والزراعة، بل يتذبذب متمسحا باعتاب شتى الاحزاب، بائعا ضميره لمن لا ضمير له، محترقا في لظى الفقر والذل والمهانة.

اللصوصية لا تزال تداهم السهوب، ولو اجتمعت كلمة القوم لما تهاون الناس مع اللصوص الذين يتفننون في كسب رضا الكتل والجماعات ويتمادون في غيهم

ويواصلون النهب والسلب.

وتقام على ابناء السهوب الغيارى دعاوى جنائية زورا وبهتانا. ويتعرضون للإهانات اثناء التحقيق ويجند ضدهم شهود زور مستعدون للإدلاء بما لم يروه ولم يسمعوه. كل ذلك لاجل الحط من كرامة الانسان الشريف والحيلولة دون انتخابه للمناصب الرفيعة. واذا اضطر المظلوم، بحثا عن وسيلة للنجاة، الى طلب النجدة من اولئك الاوغاد فانه يلوث سمعته ويلطخ كرامته، واذا لم يعرب لهم عن آيات الولاء يتعرض لحكم جائر ويتحمل الويلات والحرمان فلا يجد لنفسه في هذه الدنيا عملا لائقا ولا مكانا او ملاذا.

وعندما يبلغ المتصرفون مبتغاهم ويمسكون مقاليد الحكم بالخداع والتضليل والدهاء لا يعيرون بالا للمتواضعين الوادعين من الناس بل يسعون الى كسب رضا امثالهم من النصابين الجشعين مؤملين في المؤازرة والتأييد، متفادين العداوة والبغضاء.

وتتناقل الالسن الآن القول المأثور بالمقلوب: "لا عبرة في الافعال، العبرة في الرجال". فلا يستطيع المرء في هذه الحال ان يبلغ مبتغاه بالحق والمعروف، بل يتعكز على الحيلة والمكر والدهاء.

المتصرفون ينتخبون لثلاث سنين. تمضي السنة الاولى من حكمهم في سماع الشكاوى والملامة: "ألم تصعد على اكتافنا؟". وتمضي السنة الثانية في مقارعة الخصوم والمنافسين، وتمضي السنة الثالثة في مشاغل الحملة الانتخابية حتى يؤمن المتصرف لنفسه الفوز مجدا في الانتخابات. فماذا يبقى يا ترى؟

وعندما رأيت الامة تغوص في الشقاق والحزازات على مر الزمن اقتنعت بلزوم انتخاب المتصرفين من بين الذين حصلوا على تعليم روسي مهما كان ضئيلا. واذا لم يكن هناك اشخاص من هذا النوع او اذا اعترض معترض على ترشيحهم فالافضل تعيين المتصرفين من قبل ادراة المحافظة او الحاكم العسكري، فهذا امر نافع من عدة وجوه: اولا- الكازاخيون الطموحون سيبعثون اولادهم عندئذ لتحصيل العلم، ثانيا- لا يعود سلوك المتصرفين متوقفا على اهواء الوجهاء المحليين، بل يخضعون للرؤساء الاعلى منهم فقط. ولا بد من حماية المتصرف الجديد من التفتيش والفحوصات والامتحانات بغية قطع دابر الوشايات والمشاغبات.

لقد تسنى لنا ان نقتنع بعدم جدوى انتخاب القضاة من بين البايات والبكوات في كل ناحية. فالقضاء مهمة عسيرة لا يقوى عليها اي كان. مجلس الشورى على "قمة الجبل"، ان صح التعبير، يتطلب من المرء ان يكون ملما بمجموعات القوانين

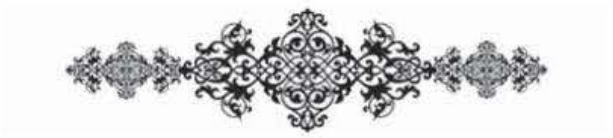

التي خلفها لنا الاجداد، مثل قاسم خان: "السبيل الوضاء" وعصام خان: "السبيل العتيق" وازتوقي خان: "القوانين السبعة". وحتى هذه المجموعات عتقت بمر الزمن ولا بد من تعديلها. ولا بد من توفير القضاة النزيهين، وما اندرهم في هذه الامة، وربما لا تجد فيها منهم احدا.

يقول المطلعون جيدا على احوال الكازاخيين: "حيثما ترى اثنين من القضاة البكوات لا تسمع غير المجادلات". غياب الحاكم الاعلى ووجود العدد الزوجي من القضاة يعقدان حل الخلافات. ما الموجب لزيادة عدد القضاة البكوات؟ اليس الافضل ان تنتخب كل ناحية ثلاثة اشخاص متنورين فاهمين دون تحديد لمدة خدمتهم، ولا ينحى منهم الا من يقدم على فعلة نكراء؟

ويمكن ان ينظر في الخلافات قاضيان ووسيط ينتخبه المدعون. واذا لم يجد اطراف الدعوى حكما بالعدل والصلح عند هؤلاء الاشخاص يمكنهم ان يراجعوا احد القضاة الدائمين. وعند ذاك تنظر المحاكم في الدعاوى مدة اقصر.

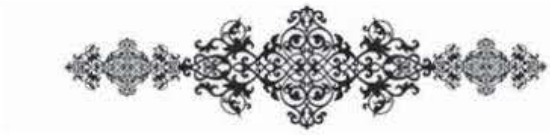

# القول الرابع

لاحظ النابهون الفطناء من زمان ان ضحكة الاحمق كنشوة السكران. السكر يؤدي الى سوء السلوك، ولا يسفر الكلام مع السكران الا عن وجع الرأس والاسنان. وعندما ينساق المرء الى حياة البطر والضحك الفارغ يضيع ضميره ويعتزل الاعمال ويقترف اخطاء لا تغفر، فيتعرض للثأر والانتقام ان لم يكن في الدار الفانية، ففي الآخرة بلا ريب.

الانسان الميال الى التأمل والتفكير يلمّ شتات افكاره دوما، سواء في شؤون الدنيا او قبيل المنية. لمّ الشتات في الافعال والاقوال اساس السلامة والرخاء، فهل يعني ذلك ان علينا ان نفتح صدورنا دوما للحزن والاكتئاب؟ وهل يجوز للنفس ان تتأسى ولا تذوق طعم المرح والضحك؟ كلا، لا ادعو الى التأسي دون سبب. ولكن ينبغي ان نفكر في البطر المؤسف الذي يعشش في نفوسنا، ونسعى الى التخلص منه بالانشغال في عمل يعود بالثمار. ما يشفي النفس وينقي الفؤاد هو العمل المثمر الحكيم وليس اللهو الفارغ.

ضعاف النفوس ينطوون كالقواقع ويغلقون الابواب وينغمسون في التأملات والاكتئاب، فلا يجدون سبيلا الى السلوى والعزاء.

اذا كنت تضحك من حماقة السفيه لا تفرح ولا تتشف لحماقات الآخرين. ينبغي ان يتملكك الغضب، فلن تكثر من الضحك على هذه الصورة. الضحك المؤسف ضحك مرير.

اضحك باعجاب وافرح باخلاص اذا رأيت امرؤا امتلك الخيرات وفعل المعروف واجترح مآثر غدت قدوة لمن يقتدي. فالقدوة الحسنة تعلمنا ضبط النفس في الوقت المناسب دون الانسياق وراء نشوة الجذل.

ليس كل الضحك يحظى بالاستحسان. فمن الضحك ما لا يصدر عن الفؤاد بالسبيل الذي مهده الله، بل يكركر بطنين فارغ لغرض واحد هو القهقهة الرنانة.

يولد الانسان في هذه الدنيا باكياً ويغادرها آسياً. وفي الفاصل بين هذين الحادثين يخفق في تذوق السعادة الحقيقية ويقصر عن ادراك قيمة الحياة التي وهبها له الخالق. فلا يقدرها حق قدرها، ويهدرها بطيش وجنون في خلافات مهينة ومجادلات لا تليق بكرامته. ولا ينتبه على نفسه الا بعد فوات الاوان، حينما تشرف الحياة على نهايتها. وعند ذاك يدرك ان كل كنوز العالم لا تسوى شروى نقير ولا تسعفه في اطالة عمره يوما واحدا.

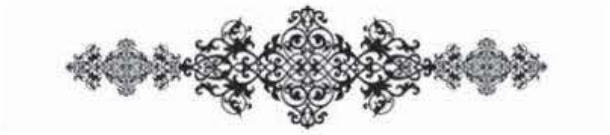

# القول الخامس

الكآبة تعكر صفو النفوس وتشل الابدان وتقيد الحرية وتجري في آخر الامر ألفاظا من الافواه او تسيل دموعا من المآقي. رأيت اناسا يبتهلون الى المولى سائلين: "اللّهمّ اجل عنا الغمة وامنحنا خلو البال كالاطفال". يتصورون انفسهم مظلومين مثقلين بالمشاغل والهموم والمصائب، وكأنما هم اكثر حكمة من الاطفال، في حين تفصح حكمهم واقوالهم المأثورة عن حقيقة تلك المشاغل والهموم: "اذا كان مقدرا لك ان تعيش حتى الظهر زود نفسك باحتياطي يكفيك حتى العصر". "بالنسبة للفقير حتى الاب يغدو غريبا"، "ماشية الكازاخي من لحمه ودمه". "وجه الغني صبوح ووجه الفقير كالجلمود". "الفارس كالذئب يكسب طعامه في الطريق". "جموع الرجال الموقرين تشغل مراتبها بين الناس وتحرص على خيراتها من التبذير والبطر". "اليد التي تجيد الكسب تجيد العطاء". "الحق حليف الاثرياء"، "واهب الخيرات ينزع ستار الاستلاب". "اذا انعدم الامل في الوجهاء لا تأمل في معونة الخالق". "اذا كنت جائعا تردد على المآتم "، "احذر البركة العميقة والجماعة القاسية القلوب". وما اكثر هذا النوع من الحكم والامثال.

فعم تتحدث يا ترى؟ لا يعنى الكازاخي بالعلم والمعرفة، ولا بالوئام والعدل، كل ما يريده هو الثراء، لكنه لا يعرف السبيل اليه. ولذا يتحايل ويتفنن في اجتذاب الثروة من الغير بالتزلف على الاقل، وان اخفق تراه يضمر العداء الشديد للدنيا وما فيها. ولا يستكنف عن تجريد ابيه من آخر ما لديه، ولا يرى في ذلك عارا او شنارا. والناس لا يستنكرون سلوك الذين يستأثرون بماشية الغير بالتضليل والدناءة والابتزاز والسلب والنهب وما الى ذلك من فنون التحايل والخداع...

فما الفرق بين عقولهم وعقول الاطفال؟ الاطفال يخشون الموقد المستعر، اما الكبار فلا يرهبهم لظى السعير. الاطفال يشعرون بالخجل والحياء، اما الكبار فلا يعرفون الخجل على الاطلاق. فهل يتفوقون على الاطفال في هذه المزية؟ لو لم نعطهم ما نملك ولم نسمح لهم بتبذير ما يملكون، ولو لم نهبط الى دركهم ومستواهم لأشاحوا عنا بوجوههم.

كل هذا ونحن نميل اليهم ونهواهم من صميم الفؤاد.

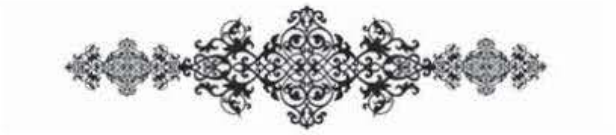

# القول السادس

تقول حكمة كازاخية: "الوحدة بداية النجاح والحياة اصل الرخاء".

لكن الكازاخيين لا يعرفون قوما اجمعوا على وحدة الكلمة، ولا يدرون كيف يبلغ الناس الوفاق والوئام. انهم يتصورون ذلك في اجتماع الماشية والاموال والطعام. واذا كان الامر كذلك فما جدوى الثراء وما ضرر الفاقة؟ وهل للكدح من اجل الثروة معنى بدون التخلص مسبقا من الاهل والاقرباء؟ كلا، الوحدة في اجتماع الكلمة، وليس في اجتماع الاموال. يمكن توحيد اناس متابينين من حيث المنشأ والاخلاق والدين باغداق الماشية عليهم بسخاء. ولكن بلوغ الوحدة بثمن كالماشية هو بداية فساد الاخلاق. فالاخوة يجب ان يعيشوا في وئام لا لأنهم في تبعية لبعضهعم البعض، بل لأنهم يعولون على قدارتهم وقواتهم ويعلق كل منهم آماله على مصيره الشخصي. والا سينسون الخالق ولا يعيرون بالا للعمل، ويسعون للاساءة الى بعضهم البعض. يغوصون في الاحقاد والضغائن ويفترون احدهم على الآخر وينشغلون بالخداع والتضليل. فكيف يبلغون الوحدة في هذه الحال؟

"الحياة اصل الرخاء". ما المقصود من تلك الحياة؟ هل هي مجرد الوجود كيلا تفارق الروح البدن؟ هذا الوجود متوفر وموجود حتى عند الكلاب. من يعتز بمثل هذه الحياة يرتعد هلعا امام الموت ويكره الآخرة. يفر من العدو هاربا بجلده جبانا مجللا بالعار، يتهرب من العمل متوانيا كسولا، ويدير ظهره للرخاء الحقيقي والثروة الحقة.

كلا، ليس هذا هو المقصود من تلك الحياة. المقصود بها حياة الروح وصفاء العقل. اذا كنت حيا وروحك ميتة لن تبلغ كلمةُ العقل مكمن وعيك، ولن تتمكن من كسب لقمة العيش بالكد النزيه. الكسول الكذاب والطفيلي المهذار شجاع بمظهره، جبان بمخبره، ولا يعرف للخجل سبيلا.

اذا كنت على هذه الصورة لا تحسب نفسك من الاحياء، فالموت بورع وتقوى افضل من حياة كهذه.

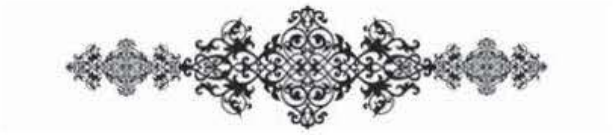

# القول السابع

يولد الطفل في هذه الدنيا وارثا غريزتين. الاولى رغبته في الاكل والشرب والنوم. تلك حاجة البدن، بدونها لا يقوى ان يكون ملاذا للروح، ولا ينمو ويترعرع. والثانية هي النزوع الى المعرفة. الرضيع يتوق الى الاشياء الساطعة الصارخة، يدسها في فمه، يتذوقها، يضعها على خده. ينتفض عندما يسمع صوت الناي والمزمار. وعندما يكبر قليلا يهرع على نباح الكلب واصوات الدواب وضحك الناس وبكائهم، ويفارقه الهدوء ويضطرب ويسأل عن كل ما تراه العين وتسمعه الاذن: "ما هذا ؟ ولماذا ؟". تلك هي حاجة الروح والفؤاد، تلك هي الرغبة في رؤية كل شئ وسماعه والتعود عليه والتعلم منه.

لن يغدو الانسان انسانا الا بعد ان يكتشف اسرار الكون الظاهرة والخفية، المرئية والمستورة، ويستوضح كل الامور والاشياء. وان لم يفعل لن تختلف كينونته عما هب ودب.

لقد ميز الله الانسان عن الحيوان من البداية بأن منحه الروح والعقل والفؤاد. فلماذا لا ننشد، عندما نكبر ونكتسب المزيد من الذكاء والفطنة، ولا نجد اللذة التي كنا في عهد الطفولة نجدها في حب الاستطلاع الذي يلهينا عن الطعام والمنام؟ لماذا لا نسلك سبيل التواقين الى المعرفة؟

ليتنا نوسع بلا كلل افق اهتماماتنا ودائرة معارفنا التي تغذي الافئدة والعقول. ليتنا ندرك ان مصلحة الروح اسمى بما لا يقاس من مصلحة البدن، فنجعل حاجات البدن خاضعة لإرادة الروح. وللاسف لم نفعل ذلك. كنا نتصايح ونزعق فلم نتزحزح الى ابعد من كومة الروث في طرف القرية. كانت الروح تتحكم فينا في عهد الطفولة فقط. وعندما ترعرعنا وكبرنا لم نسمح لها ان توجه تصرفاتنا. لقد اخضعنا الروح للبدن، وصرنا ننظر الى كل ما حوالينا بالعين وليس بالعقل، ولم نعد نثق بخلجات الفؤاد. نكتفي بالمظهر الخارجي لما تبصره العين ولا نجهد انفسنا للتعمق في الاسرار الكامنة متصورين اننا لن نضيع شيئا يستحق الاهتمام بسبب هذا الجهل المطبق. ونرد على نصيحة الناصح قائلين: "عش كما يحلو لك، اما انا فاعيش قدر ما استطيع"، "الفقير بعقله اغنى من الغني بعقل الغير". نحن عاجزون عن تقدير حكمة الناصحين ولا نفهم ما يقولون.

لا شرارة في الفؤاد ولا ايمان في النفس، فما الفرق بيننا وبين الدواب اذا كنا

نرى بالعين وحدها؟ كنا في الطفولة افضل مما نحن عليه الآن. كنا اطفالا آدميين، نسعى الى معرفة المزيد. اما الآن فنحن اسوأ من الدواب. الدابة لا تعرف شيئا، ولا تطمح الى شئ. ونحن لا نعرف شيئا، ولكننا نجادل حتى تبح اصواتنا دفاعا عن جهالتنا، مدعين ان جهلنا هو عين المعرفة والصواب.

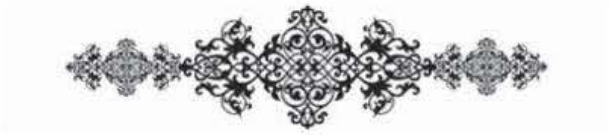

# القول الثامن

هل ينصت احد لنصائحنا ويأخذ بارشاداتنا؟ المتصرف او القاضي، لو كان يتوق الى المعرفة والعقل فهل يقدم على ترشيح نفسه لهذا المنصب؟ هؤلاء الاشخاص يعتبرون انفسهم اذكياء بما فيه الكفاية، ويسعون الى السلطة ليعلموا الآخرين ويربوهم وكأنهم بلغوا ذرى الكمال ولم يبق امامهم سوى ارشاد الآخرين. فهل ينصتون الى ما نقول؟ وحتى لو ارادوا ذلك لما توفر لديهم الوقت الكافي. اذهانهم مشغولة بهموم ما انزل الله بها من سلطان، كيلا يغيظوا رؤساءهم دون قصد ولا يثيروا حفيظة اللصوص ولا يستثيروا العامة ولا يخسروا المنافع التي يسعون اليها. فهذا بحاجة الى معونة وذاك لا بد من تخليصه من العقاب، المشاغل كثيرة والوقت قليل...

والاثرياء؟ انهم لا يعرفون العوز والحاجة. كسبوا الثروة، ولو ليوم واحد. ويخيل اليهم انهم يملكون كنوز الدنيا. واذا ارادوا شيئا فهم يشترونه بالماشية والدواب. ابصارهم تتطلع الى اعلى، ونواياهم اعلى من الاعلى. النزاهة والضمير والاخلاص بالنسبة لهم ارخص من الماشية. فلا شيء عندهم اثمن منها. ولا يخامرهم شك بأنهم قادرون على شراء كل الذمم بها. الماشية عندهم هي الوطن والامة والدين والاهل والمعارف. دينهم دنانيرهم فأنّى لهم ان ينصتوا الى نصائح الآخرين؟ وحتى لو ارادوا فلا وقت لديهم. لا بد من توفير العلف للماشية، لا بد من بيعها بمزيد من الارباح، لا بد من حراستها دون اللصوص والذئاب وحمايتها من البرد. لا بد من العثور على رجل يؤمن كل تلك المهام، انهم مشغولون بترتيب كل تلك الامور حتى يكيل لهم الناس المديح ويغدقوا عليهم الثناء.

اما اللص الشرير والنصاب الغدار فهو، اصلا، لا ينصت الى نصيحة احد.

والبؤساء، كالنعاج الوادعة، مشغولون بكسب لقمة العيش. ما حاجتهم الى النصائح والمعارف والتعاليم اذا كان حتى الاغنياء لا يحتاجون اليها؟ ويقولون: "اتركونا وشأننا، تحدثوا مع الذين يفهمون اكثر منا"، وكأنما المعرفة لا تلزمهم طالما هم فقراء. انهم في شغل شاغل عن الآخرين، لو امتلكوا ما يمتلكه الآخرون لما ذاقوا طعم الحرمان ولما عرفوا مرارة المصائب.

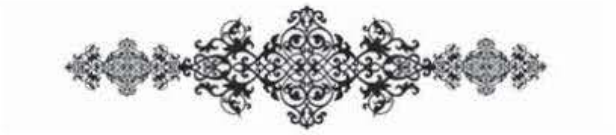

# القول التاسع

انا من ابناء هذه الامة. فهل احب الكازاخيين ام لا؟ لو كنت احبهم لاستحسنت اعرافهم واخلاقهم ووجدت في سلوكهم ولو القليل مما يجلب لي الفرحة او السلوى، ويجعلني راضيا على بعض خصالهم وسجاياهم دون ان يخبو املي ويخفت. ولكنني لا اجد ذلك.

ولو كنت لا احبهم لما تحدثت اليهم وعرضت عليهم اعز افكاري وتشاورت معهم ودخلت عليهم محيطهم واهتممت بشؤونهم وسألتهم عما يفعلون وعما يجري لهم. لو كنت لا احبهم لرقدت خالي البال، كلا، لنزحت عنهم واغتربت.

ولا يراودني امل بأنهم سيتبدلون او اني سأعيدهم الى رشدهم واصلحهم. ليس في فؤادي اي من هذه المشاعر. فماذا علي ان افعل؟ لا بد ان يستقر رأيي على شئ.

ومع انني اعيش وأحيا، لكنني لا اعتبر نفسي من الاحياء. ولا ادري، أبسبب الأسف على الناس ام بسبب الاستياء من نفسي ام لسبب آخر. اعيش حسب الظاهر، وكل ما في داخلي موات. ازعل، ولا اشعر بسورة الغضب، اضحك ولا اشعر بالبهجة. الكلمات التي اتفوه بها والضحكات التي تصدر عني تبدو غريبة علي. كل شئ غريب علي.

في عهد الفتوة لم يخطر في بالي اني يمكن ان اترك امتي. احببت الكازاخيين من صميم القلب ووثقت بهم منتهى الثقة. وعندما تسنى لي ان اعرف الناس، وعندما خبا املي رويدا رويدا اتضح لي انني لا امتلك القوة التي تمكنني من ترك الديار ومصاهرة الغرباء. ولهذا تحنو جوانحي الآن على الفراغ. وافكر عموما: ربما هذا افضل. فلن أتألم عندما تقترب الساعة ولن اقول: "وا أسفاه، لم اذق طعم هذه الافراح او تلك..." لن اعذب نفسي بالاسف على ملذات الدنيا، سأعللها بالآمال في الآتي.

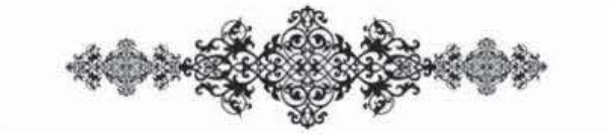

# القول العاشر

الناس يبتهلون الى الخالق عز وجل كي يهبهم ذرية واطفالا. ما حاجة المرء الى الطفل؟ انه يريد وريثا، يريد من الابن ان يعيل والديه في الشيخوخة ويقيم الصلاة على روحهما بعد الممات. فهل هذا كل ما يريده؟

ما الغرض من الوريث؟ بسبب خوفك من بقاء التركة دون مالك بعد الموت؟ أيجدر بك ان تحزن لما يبقى بعد غيابك؟ ام انك تشفق على تركها لغيرك؟ وهل كنزت ثروة طائلة حتى تشفق وتأسف عليها الى هذا الحد؟

الولد الطيب فرحة وبشرى والولد الردئ عبء ثقيل. فمن يدري اي طفل يمنحك الله عز وجل؟ وهل كانت الاهانات التي تحملتها طول عمرك قليلة منقوصة؟ وهل كانت المساوئ التي جنيت قليلة منقوصة؟ فلهذا ترغب في ميلاد طفل تربيه على الدناءة والإساءة وتحكم عليه بنفس الإهانات التي ذقت طعمها؟

أتريد لإبنك ان يقيم الصلاة على روحك بعد الممات؟

اذا كنت عملت المعروف ونهيت عن المنكر في حياتك فمن لا يقيم الصلاة عليك بعد الممات؟ ولكن اذا كنت لم تفعل سوى المساوئ والشرور فما نفع صلوات ابنك؟ وهل يفعل الحسنات التي قصرت انت عن فعلها؟

اذا كنت تريد الطفل لافراح الآخرة فانت ترغب في موته في سن مبكرة. واذا كنت تريده لافراح الدنيا فأين رأيت كازاخيا يلد ابنا يحنو على ابويه عندما ينمو ويكبر، ويحميهما من العذاب؟ وهل تستطيع امتك، وهل تستطيع انت ان تربي ابنا من هذا الطراز؟

أتريد له ان يعيلك عندما تبلغ من الكبر عتيا؟ هيهات. لا احد يعلم هل ستبلغ من الكبر عتيا ام تسلم الروح قبل ذلك الاوان؟ وهل يكبر ابنك مشبعا بالرأفة والرحمة حتى يسهر عليك في الشيخوخة؟ اذا كنت تملك ماشية سيسهر عليك الكثيرون. واذا كنت لا تملكها فلا احد يعلم من سيعيلك وكيف. ولا احد يعلم هل سيجهد ابنك في مضاعفة خيراتك ام يبذرها.

طيب. لنفترض ان الخالق تكرم عليك فوهبك ابنا. فهل انت قادر على توفير التربية الجيدة له؟ كلا. ستضيف الى خطاياك الكثيرة خطايا ابنك.

من ايام العمر الاولى ستخدع ابنك واعدا اياه بكيت وكيت. وستشعر بالارتياح لتمكنك من خداعه. على من تنحي باللائمة عندما يكبر على الكذب

والرياء؟ تعلمه بذاءة الكلام وشتم الناس، وتدافع عنه في كل المناسبات: "لا تمسوا هذا العنيد"، وتتغاضى عن طيشه. وعندما ترسله الى الكتّاب تبحث عن الملا الذي يتقاضى اقل الاجور، وتكتفي بتعليمه القراءة والكتابة، وتعلمه التحايل والدناءة، وتغرس في فؤاده الارتياب بالاتراب وتعوده على عادات السوء. أتلك هي التربية؟ وهل تتوقع الرحمة من صبي كهذا؟

يتوسل الناس الى الخالق عز وجل ان يهبهم المال. فما حاجة المرء الى المال؟ ألم تتوسل الى الله؟ اجل، توسلت اليه، ومنحك ما لا ترغب فيه. وهبك القوة لكي تكد وتكدح وتكسب. فهل تنفق قواك في العمل النزيه؟ كلا. وهبك الله القوة لتتعلم، ومنحك العقل والقدرة على استيعاب العلوم، ولكن لا احد يدري علام انفقت تلك القوة والطاقات. فمن يخفق في كسب الثروة اذا كد بلا كسل وكدح بلا ونى وابدع في فطنة وذكاء؟ لكنك لا تريد هذه الامور. انت تريد كسب المال بتخويف الآخرين وتضليلهم وابتزازهم. فهل هذا ابتهال؟ انه نهب وسلب وابتزاز. انه من قبيل ما يفعله الذين باعوا الضمير وضيعوا الشرف.

ولنفترض انك كسبت الماشية بهذه الصورة. فلماذا لا تستفيد منها في توفير التعليم لابنك على الاقل؟ لا خير ولا ايمان بدون التعليم. ولا تبلغ الصلاة والصيام والحج غاياتها بدون المعرفة. ولم ار في حياتي شخصا كسب الثروة بالنهب والسلب وانفقها في سبيل الله. فالكسب الحرام ينفق على المحرمات. ولا يبقى من تلك الثروة اثر سوى مرارة الخيبة والحقد والاضغان.

وعندما يرى المرء المال في حوزته يتباهى به ويصعر خده. وعندما ينفقه ويبدده يتباهى بأنه كان غنيا في زمن ما. وعندما يلم به الفقر والاملاق يهبط الى مستوى الشحاذة والاستجداء.

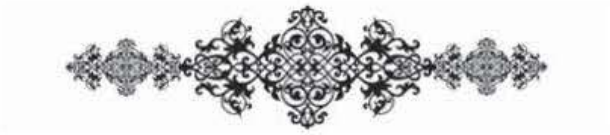

# القول الحادي عشر

كيف تعيش الامة؟ وما اسباب العيش؟ ثمة وسيلتان تؤمنان تلك الاسباب، احداهما السرقة. فالسارق يأمل في الثراء باللصوصية، والوجيه يفكر في مضاعفة ماشيته باستعادة المسروق وزيادته، وصاحب السلطة يعد الوجيه بالتحري عن المسروقات واعادتها، ويعد السارق بتفادي المحاكمة والنجاة من العقاب، ولذا ينهب السارق والمسروق معا. العامة تتحايل وتلعب على الحبلين، تبلّغ السلطات بفعلة اللص وتقدم له في الوقت ذاته خدمة فتشتري ما يسرقه بابخس الاثمان. وثمة ملاحظة اخرى. النصابون يدلّون الناس على حيل واحابيل لم تخطر لهم على بال، ويحرضونهم على افعال منكرة يقولون انها توصلهم الى الثروة ويؤلبون الناس على بعضهم البعض ويأملون في كسب رضا هذا الرجل او ذاك حتى يجنوا المنافع والثمار.

على هذه الصورة يعيشون: صاحب السلطة ينجد الاقطاعي الوجيه ويحابي السارق، بينما يتزلف الفقير الى اصحاب السلطة ويلتزم جانبهم في الجدال والنزاعات ويميل الى هذا الحزب تارة والى ذاك تارة اخرى، ويهدر كرامته ويبيع زوجته واطفاله واهله واقاربه دون وازع من ضمير.

ولولا اللصوص والنصابون لفكر الناس وراجعوا سلوكهم، فهم راغبون في الكدح النزيه وميالون الى العمل بالمعروف والنهي عن المنكر وتواقون الى المعارف، وعند ذاك يكتفي الوجيه بما لديه ويسعى الفقير الى كسب ما يفتقر اليه دون ان يفقد امله وايمانه.

بسطاء الناس يتورطون في الرذائل غير متعمدين. فمن يقوى على اجتثاث هذه الشرور؟ وهل يجوز ان يطوي النسيان مفاهيم الشرف واليمين والولاء والضمير؟

لعل ثمة قوة قادرة على ترويض اللصوص، ولكن من يعيد الوجيه الى الرشاد والعقل؟ وما هي السبل الكفيلة بانقاذه وهو الذي يدفعه جشعه الى التصرف بإيحاء من النصابين الماكرين؟

# القول الثانية عشر

عندما يهدي احد ما الناس الى سواء السبيل، الى سبيل الله، الى الصراط المستقيم، لا نتجرأ على منعه من مواصلة مواعظه مهما كانت درجة اجادته ومدى اجتهاده، لانه لا ضير في النوايا الحسنة. فليرشد الناس ويعظهم حتى وان لم يكن على قدر كاف من المعرفة والتنوير. ولكن يجدر به الا ينسى شرطين لا مناص منهما.

عليه، في المقام الاول، ان يرسخ ايمانه، وثانيا- ينبغي له الا يكتفي بما يعرف، بل ينشد الكمال على الدوام. واذا ترك احد الدراسة دون ان يكملها فانه يحرم نفسه من بركة الله، ولا جدوى من مواعظه وارشاداته. فما نفع المظهر المحمود، بالعمامة والصيام والصلاة، اذا كان لا يعرف مواضع التكبير ومواطن الكف عن اداء الفريضة ؟

من لا يلتزم بالتشدد والصرامة واللياقة ولا يشعر بالمؤاساة ولا يتألم لآلام الغير ليس من المؤمنين، فلا ايمان بلا حرص وعناية واهتمام.

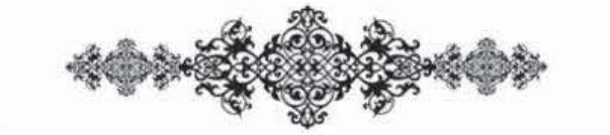

# القول الثالث عشر

الايمان هو المعتقد الراسخ بالخالق الاحد الصمد الذي نعلم بوجوده من خلال التنزيل الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

هناك طريق مزدوج للايمان.

فالبعض يتبنون الدين مقتنعين بضرورته وعدالته. ويقوون ايمانهم بالحجج العقلانية. وهذا هو "الايمان اليقين".

والبعض الآخر يتبنون الدين باغتراف المعارف من الكتب والملالي وهؤلاء بحاجة الى تمسك شديد بمبادئ الدين الحنيف والى قوة العزيمة التي تمكنهم من الصمود في وجه آلاف المغريات بل وحتى في مواجهة الموت. وهذا هو "الايمان التقليدي".

ولكي يحافظ المسلم على ايمانه لا بد له ان يتحلى بفؤاد جرئ وارادة صلبة وثقة بالنفس. ولكن ما موقفنا من الذين لا يتحلون بالمعارف الكافية التي تؤهلهم ليكونوا من ذوي "الايمان اليقين"، الذين لا يملكون معتقدات راسخة ويقعون بسهولة في الغواية والتحريض، ويندفعون وراء مصالحهم الشخصية فيسمون الاسود ابيض والابيض اسود ويقسمون الأيمان الغلاظ على "حقيقة" هي الكذب بعينه؟ هل هم من ذوي "الايمان التقليدي"؟ العياذ بالله من هؤلاء. فليتذكر كل منا انه لا ايمان غير ما ذكرنا اعلاه. فلا يأملنَّ الكفرة في رحمة الله بلا حدود. انهم لا يستحقون مغفرة الله ولا حماية رسوله. فاللعنة على من يصدق بالاقوال الكاذبة التي تدعي "ان حد السيف اقوى من اليمين" و"ان الله يغفر كل الذنوب".

# القول الرابع عشر

هل هناك ما هو اعز على العباد من الفؤاد ؟ عندما يقول الناس عن رجل انه انسان بقلب كبير انما يعبرون له عن منتهى الاحترام والتبجيل والتقدير. لكنهم لا يتصورون جيدا خصال الفؤاد الاخرى. فالرحمة والطيبة والاحسان الى الغريب وكأنه اخ حبيب انما هي مشاعر نابعة من القلب. الحب هو رغبة الفؤاد. واللسان اذا انصاع لدافع الفؤاد لن يكذب بتاتا. المنافقون وحدهم يتناسون الفؤاد. اما الذين يشاع عنهم بين الناس ان الواحد منهم "انسان بقلب كبير" فغالبا ما يتضح انهم لا يستحقون هذا التوصيف وهذا الثناء. فاذا كانوا لا يقدرون حسن الآداب ولا يتمسكون بالوعد ولا يستهجنون الشرور ولا يأخذون بيد الضالين بل يجرجرون اقدامهم وراء الجموع ككلاب سائبة ولا يذودون عن العدالة عند الشدائد والملمات ولا يلتزمون جانب الحق عندما يتعسر التزام جانبه انما هم ناس تنبض في صدورهم قلوب الذئاب وليس افئدة الفرسان العجاب.

الكازاخي هو ايضا من بني آدم. والكثيرون من الكازاخيين يحيدون عن الصراط المستقيم ليس بسبب قلة العقل، بل لخلو الفؤاد من البسالة والصلابة اللتين تحملانهم على تقبل نصائح الفطناء والعمل بموجبها. وانا لا اصدق الكثير ممن يقولون انهم اقترفوا الشرور بجهلهم. كلا، ليسوا جهلة، بل خور العزيمة والكسل المعيب يحملانهم على الاستهانة بمعارفهم. ومن يخطئ مرة يندر ان يجد في نفسه القوى الكافية لتصحيح الاخطاء.

ومن ينعتهم الناس بالفرسان الاشداء والشجعان والشطار غالبا ما يشجعون بعضهم البعض على اقتراف المساوئ. فان محاكاة بعضهم البعض بصورة عشوائية وشجاعتهم الطائشة تقودان الى المصائب والنكبات.

واذا عجز المرء عن التوقف بعد الانسياق وراء الرذائل والتباهي والزهو والخيلاء، ولم يتمكن من التوبة ولم يحاول ان يطهر نفسه امام باريه او بوازع من الضمير فكيف تنعته بالفارس المقدام؟

ولا يسعنا الا ان نتساءل: أآدمي هو ؟ هل هو انسان ؟

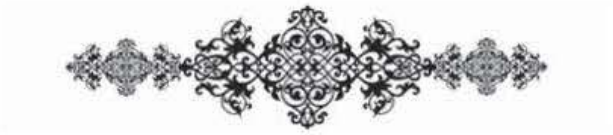

# القول الخامس عشر

في رأيي، هناك فارق جوهري بين الاذكياء والاغبياء.

عندما يولد الانسان لا يمكنه ان يعيش بدون الولع في الاشياء الممتعة. وتبقى ايام الولع والبحث عالقة في الذاكرة بوصفها اسطع ايام الحياة.

والانسان الرشيد يولع باعمال جدية كريمة ويسعى بدأب الى بلوغ الهدف المنشود. وحتى ذكريات المتاعب والاتراح في الدرب المؤدي الى ذاك الهدف تداعب السمع وتفرح الفؤاد. ولا يشعر المرء بأدنى اثر للاسف على سني العمر المنقضية.

اما الانسان المتهور فيقضي اوقاته في امور تافهة لا معنى لها ولا قيمة. وعندما ينتبه على نفسه يدرك ان افضل سني العمر ضاعت هباء منثورا، ولا تجلب التوبة المتأخرة السلوى لنفسه ولا العزاء. في عهد الشباب يتصرف وكأن الفتوة خالدة، ولا يخامره شك في ان المزيد من مغريات اللهو والفرح ينتظره في المستقبل. ولكنه سرعان ما يعجز عن كل شئ ويغدو كائنا لا خير فيه بعد ان فقد قوته وحيويته ومرونته.

وهناك غواية اخرى تتربص بالمنساقين وراء الملذات. فان بلوغ النجاح او الاقتراب منه يبعث النشوة في النفس ويسدل غشاوة على الدماغ. وتكتنف النشوة العقل وتحمل المرء على اقتراف الاخطاء والهفوات، فيجلب انتباه الناس ويغدو عرضة للملامة والتهكم.

ذوو العقل والحكمة لا يفقدون ما حباهم الله من تعقل في مثل هذه الاوقات الحرجة، فيضبطون النفس ولا يعرضون مشاعرهم على الملأ.

اما الغبي فيمتطي ظهر حصان بلا سرج شاخصا ببصره الى السماء كالمجنون، وقد فقد قبعته في سورة الحماس دون ان يلاحظ اذيال ردائه تغطي عجيزة الحصان...

هذا ما رأيته بأم العين.

اذا اردت ان تكون من الاذكياء اسأل نفسك مرة في اليوم او مرة في الاسبوع او على الاقل مرة في الشهر: كيف اعيش؟ هل فعلت ما يسعفني في التعليم وينفعني في الدنيا او في الآخرة؟ ألن اتجرع مرارة الاسف والخيبة فيما بعد؟

ام انك نفسك لم تلاحظ ولا تتذكر كيف عشت ولأي غرض؟

# القول السادس عشر

الكازاخي لا يشغل باله في صلواته، ولا يفكر هل ترضي الخالق ام لا؟ فهو يفعل ما يفعله الآخرون: يقيم الصلاة راكعا ساجدا. ويتعامل مع ربه مثلما يتعامل مع تاجر جاء ليوفي ديونه: "هذا كل ما املك، خذه اذا اردت، وليس عندي غيره، فهل اجلب لك الدواب من تحت التراب؟". الكازاخي لن يتعب نفسه في التفكير وتطويع اللسان وتحصيل العلم والحرص على نقاوة الدين والايمان: هذا كل ما يعرفه. فهل يليق به ان يتوجه الى الكتّاب بعد ما شاب. "المهم الا يلومني الناس على ترك الصلاة، اما اعوجاج اللسان فليس عارا في هذا الزمان".

ولكن هل يختلف تركيب لسانه عن ألسن الآخرين؟

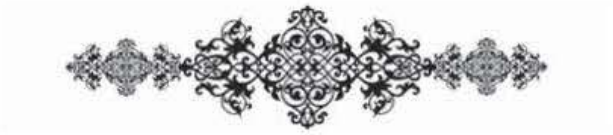

# القول السابع عشر

ذات مرة توجهت الارادة والعقل والقلب الى العلم لتحتكم اليه حتى يقطع جدال القوم ويقرر من الأهم.

قالت الارادة: "هيه، يا علم، انت متأكد تماما ان احدا لا يبلغ الكمال بدوني، وحتى يعرف المرء نفسه ينبغي له ان يواظب على الدراسة، ولا يمكنه ان يفعل ذلك بدوني. ولا يمكن اداء الفرائض وطاعة الله ليل نهار الا بمعونتي. ولا يمكن بدوني كسب الثروة والمهارة والاحترام والترقية. أفلست احمي الناس من النوازع الدنيئة وامسك بعنانهم؟ أفلست احذرهم من الخطايا والحسد والغوايات؟ أفلست اساعدهم على ضبط النفس والصمود في آخر لحظة على شفا الهاوية؟ فكيف يجادلني هذان الاثنان؟".

وقال العقل: "لا احد غيري يستطيع ان يفهم أي من كلماتك نافع وأي منها ضار فتّاك في الدنيا والآخرة. لا احد يفهم لغتك سواي. بدوني لا يتفادى الناس الشرور ولا يعثرون على المنافع ولا يبلغون المعارف. فلماذا يجادلني هذان الاثنان"؟.

وقال القلب: "انا سيد البدن البشري. الدم ينطلق مني، والروح تقيم عندي، والحياة اصلا مستحيلة بدوني. ابعد النوم عن عيون الراقدين على الاسرة الوثيرة وارغمهم على التقلب واحملهم على التفكير في الفقراء الذين يعانون من الجوع والبرد ولا يملكون المأوى. بإرادتي يحترم الصغار الكبار ويتسامحون مع الاصغر منهم. لكن الناس لا يحاولون الحفاظ على نقاوتي، فيعانون بسب ذلك. ولو كنت نقيا لما وضعت فوارق بين الناس. وانا اعجب بالفضائل واشجب الرذائل. اكره الشرور والعنف، وينبعث مني الشعور بالاعتزاز والضمير والرحمة والطيبة. فما نفع هذين الاثنين بدوني؟ كيف يتجرآن على مجادلتي؟".

وبعد ان استمع العلم الى تلك الاقوال رد عليها فقال: كل كلامك صحيح يا ارادة. وفيك "مكارم" اخرى لم تذكريها. لا يمكن بلوغ شئ بدون مشاركتك، لكنك تنطوين على قساوة تضاهي قوتك. انت صلبة في خدمة الحق، لكنك تبدين صلابة لا اقل من تلك في خدمة الباطل. هذه هي سوأتك.

وانت محق ايضا ايها العقل. لا يمكن بلوغ شئ في الحياة بدونك. وبفضلك عرفنا الخالق، واطلعنا على اسرار العالمين، اسرار الدنيا والآخرة. لكن ذلك ليس

آخر امكانياتك. فالمكر والغدر من فعل يديك ايضا. الطيب والشرير يستعينان بك، وانت تخدم الاول والثاني بكل اخلاص. هذا هو عيبك.

ومهمتي اصلاح ما بينكما. حبذا لو كان القول الفصل في هذا الجدال للقلب .

لديك ايها العقل دروب وسبل عدة. ولا يستطيع القلب ان يطرق كلا منها. وهو يفرح لنواياك الحسنة ويرافقك بارتياح وانت تنشدها. لكنه لا يتبعك عندما تتوخى نوايا سيئة، بل يشيح عنك مشمئزا.

وانت يا إرادة لديك الكثير من القوة والجرأة والبسالة. لكن القلب قادر على تحذيرك انت ايضا. وهو لا يعيقك عن التروي والحكمة، لكنه يقيدك فيما لا موجب له.

يتعين عليكما ان تتوحدا وتطيعا القلب في كل شئ.

واذا تعايشتم ثلاثتكم في شخص واحد فان تراب قدميه يمكن ان يشفي الضرير. واذا فقدتم السبيل الى الوئام، فانا افضل القلب. حافظ على نزعتك الانسانية يا قلب. فالله تعالى يحكم على سلوكنا وفقا لهذه الصفة. وهذا ما ورد في كتابه جل جلاله.

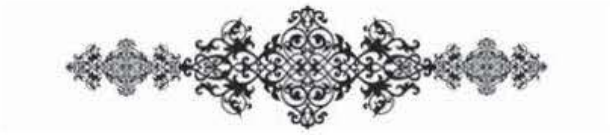

# القول الثامن عشر

يتعين على المرء ان يرتدي المتواضع من الثياب بشرط ان تكون نظيفة وأنيقة. ولا ينفق على الثياب اكثر من اللزوم ويثقل نفسه بالافراط في الاعتناء بالمظهر والهندام الا المتغنج المتبطر.

المتغنجون المهندمون اصناف واشكال. بعضهم يعتنون بوجوههم، يرعون شواربهم ولحاهم، ويهتمون برقة البشرة ورخاوة البدن، ويسيرون مصعرين الخدود، تارة يرفعون الحواجب بألف مغزى، وتارة يطقطقون باصابعهم او يهزون مرافقهم، وبعضهم يبدي منتهى اللاابالية ويسعى الى تقمص شخصية الفتى المتواضع البسيط ويتفوه كأنما عن غير قصد بكلمات الثناء على ثيابه الثمينة وجواده الاصيل، ويبذل جهده ليلفت انظار من هو اعلى منه مرتبة ويثير حسد من هم في مرتبته، ويبدو بين المراتب الادنى منه وكأنه مثال الفخفخة والابهة. ويقال عن امثاله: "ما الذي يشغل باله اذا كان لديه حصان كهذا وثياب كهذه".

كل ذلك حماقة مخجلة.

لا تولعوا بهذه السفاسف، والا سيصعب عليكم استعادة الملامح الانسانية الحقة.

التغنج والافراط في الهندام لا يختلفان بشئ عن زهو الكلاب المسعورة، حفظ الله البشر من هذه الشرور.

على المرء ان يتميز عن الآخرين بالذكاء والفطنة والمعرفة والعزيمة والنزاهة والضمير والخلق.

ولا يفكر في العلو بغير درجات هذا السلم الا الحمقى والاغبياء.

# القول التاسع عشر

الطفل الآدمي لا يولد رشيدا. وبالسمع والبصر واللمس والذوق والشم يأخذ في معرفة الفارق بين الصالح والطالح. ويزداد عرفانا كلما ازداد رؤية وسمعا. ويستطيع الطفل ان يستوعب الكثير بالانصات الى كلام الراشدين. والعقل وحده لا يكفي، فلا يغدو المرء انسانا مكتملا الا بالانصات الى ارشادات العارفين وحفظها والاخذ بها وتفادي السيئات.

ولكن ما نفع الانصات الى الكلمات الحكيمة اذا كان الشخص يعبر عن الاعجاب في غير محله او، بالعكس، يستمع الى تلك الكلمات بفتور، شارد البال، دون ان يستفسر عما هو غامض عليه، ودون ان يتعمق في جوهر ما يقال او لا يخرج منه بأي استنتاج رغم إحساسه بصواب ذاك الكلام وجدواه؟

ما جدوى الكلام مع شخص لا يعرف قيمة الكلمة؟

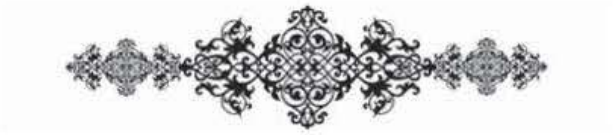

# القول العشرين

ما لأحد سلطة على القضاء والقدر. هذا امر نعرفه جميعا. والانسان يتميز بخاصية الاشباع او الملل التي تظهر بالقضاء والقدر وليس برغبة المرء.

وعندما تداهمه تلك الظاهرة مرة لن يتخلص منها ابدا. وحتى لو استجمع قواه للفرار منها لا بد وان تلحق به وتستولي عليه.

والانسان يصل حد الاشباع من كل شئ. يمل، بدرجات متفاوتة، من كل شئ، من الطعام واللهو والهندام والمآدب والولائم والغواني ورغبة التفوق على الآخرين. ويكتشف آجلا ام عاجلا بطلان ما يولع به فيصاب بخيبة الامل والبرود.

حياة الانسان، ومصيره، شأن كل ما هو موجود في الدنيا، عرضة للتقلبات. ما من كائن حي على وجه البسيطة يعرف حالة السكون. فمن اين يأتي ثبات المشاعر؟

الشعور بالاشباع او الملل يلازم النابهين الفاهمين الساعين الى الكمال في الحياة والذين يعرفون قيمة الاشياء ويتمكنون من ادراك بطلان الحياة الفانية ولاجدواها. وتبدو الحياة نفسها باردة في انظار الذين يدركون عدم جدوى الافراح الدنيوية العابرة.

وفكرتُ: لله در الغبي الخالي البال.

# القول الواحد والعشرين

يصعب على المرء ان يصمد امام الكبرياء سواء كانت بقدر كبير او صغير. وقد لاحظت نوعين منها: الإباء والتبجح.

فالأبي يقيم لنفسه اعتبارا رفيعا. ويبذل جهده كيلا تتصوره العامة جهولا طائشا، يحنث بالوعد، قليل الادب مغرورا، كذابا عديم الضمير، محتالا ماكرا. وهو يفهم وضاعة هذه المساوئ فيسعى الى تجاوزها. وتلك سجية الانسان العاقل المتسامي الحي الضمير. فهو لا يطمع في ثناء او مديح ولا يبخل بشئ في سبيل الحفاظ على منزلته وسمعته.

اما المتبجح فهو يبذل جهده كي يجعل الناس تتكلم عنه وتطيل الكلام. ويريد للجميع ان يعرفوا بانه هو الفارس المغوار ذو الثروة والجاه... وينسى ان الناس سيقولون عنه من كل بد ما لا يرغب في سماعه. والحقيقة انه لا ينسى هذا الجانب المعروف بل يتناساه. ولا يعير بالا الى هذه البطانة التي تلازم الشهرة من كل بد. والمتبجحون عادة، ثلاثة اصناف، اولهم تحدوه رغبة شديدة في الشهرة في ديار غريبة، بين اناس لا يعرفونه. انه جهول، لكنه لا يزال يحتفظ ببقية من الخصال الانسانية.

والثاني يرغب في الشهرة والمديح بين قومه. جهله متأصل، وهو يفتقر الى الخصال الانسانية.

اما الثالث فيبحث عما يتباهى به بين اهله وذويه او في قريته. فلا احد غريبا يمكن ان يستحسن تبجحه. هذا هو الجهول المطبق الذي لم يبق فيه من الانسانية شئ.

من يرغب في المديح والثناء بين الغرباء يحاول ان يتميز على ابناء قومه، ومن يرغب في ثناء قومه ومديحهم يحاول ان يكسب رضا اهله، ومن ينشد ثناء اهله وذويه واثق من انه يفوز به اذا امتدح سلوكه واغدق النعوت على نفسه.

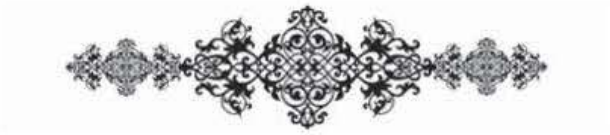

# القول الثانية والعشرين

اتأمل وافكر: من يستحق حبي واحترامي من الكازاخيين اليوم؟

اريد ان احترم الوجهاء، لكنني لا اجد وجيها بمعنى الكلمة، واذا وجدته لا اراه سيدا على إرادته وامواله. فهو يعادي البعض ويوزع الماشية على البعض الآخر بسبب الحذر والاحتراس فيغدو في آخر المطاف مدينا لمائة من الرجال او يزيد. ويتصور انه تصدق عليهم عندما استجاب لتوسلاتهم، يتصور الامر على هذا النحو لحماقته، بينما هو في الواقع تابع لهم. ولا يجوز ان ننعته بالسخي او الرحيم. فهو يصارع قومه في دياره ويبذر الخيرات ويتزلف لمن لا كرامة لهم. وحيثما يفتقر الوجهاء الى الوفاق والوئام يتكاثر الوصوليون من كل شاكلة وطراز ويجهدون في تخويفهم ويعيشون على حسابهم.

واريد ان احترم الميرزوات، لكنني لا ارى في ايامنا هذه رجالا أسخياء حقا، اما الذين يوزعون الدواب ذات اليمين وذات الشمال فهم اكثر من الكلاب. بعضهم يوزع الماشية طوعا، طمعا في النفع، وبعضهم يوزعها مكرها. وبعضهم يقيم الدنيا ولا يقعدها ليشتهر بوصفه ميرزا، وكأن احدا دس حفنة ملح في عجيزته. لكنه في اغلب الاحوال يقع فريسة بيد الاشرار.

واريد ان احترم المتصرف والقاضي، لكن السهوب لا تعرف حاكما او قاضيا يتقي الله. فالسلطة المشتراة بالنقود لا تسوى شروى نقير.

واريد ان احترم القوي، لكنني رأيتنا جميعا اقوياء في المنكر، ولا احد يرغب في عمل المعروف. ليتني اجد رجلا فطينا ذكيا لأقدم له آيات الاحترام. ولكن ما من رجل يكرس عقله لخدمة الضمير والعدل، فالجميع على استعداد للمكر والغدر.

واريد ان احترم البائس المسكين، لكنه هو ايضا ليس بريئا من الخطايا. ولا يهمك انه عاجز حتى عن ركوب البعير المناخ. فلو كانت لديه قوة لما عدم الحيلة في الاستئثار بشئ خلسة.

فمن بقي يا ترى؟ النصابون الجشعون . لن نتمكن من ايقافهم الا بعد ان يخربوا بيوت الآخرين ويدفعوهم الى التسول والاستجداء...

فمن سنحب يا ترى؟ ولمن نتشفع في صلواتنا؟ المتصرفون والقضاة الكريهون لا يعنونا بشئ. لا يبقى غير الوجيه الوديع الذي يعيش بسبب دعته وتقواه وفقا للحكمة القائلة: "من ينشد الثراء يعاف النزاع". هذا الرجل مغضوب عليه من قبل

الجميع مع انه يوزع نصف ثروته على الناس ويحرص عبثا على حماية نصفها الثاني من تطاول اللصوص والظالمين.

لا حيلة لنا في الامر. نحن نشفق عليه ونتشفع له.

فلم نجد غيره من المستحقين.

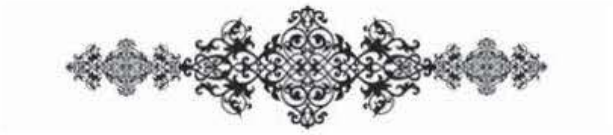

# القول الثالث والعشرين

الفرحة والسلوى تلاحقان الكازاخي كاللعنة.

فالكازاخي يفرح عندما يلاقي رجل سوء او يرى سلوكا شائنا لم يقترفه بنفسه. يفرح قائلا: "اعوذ بالله من فلان. فهو يعتبر نفسه انسانا لكننا بالمقارنة معه اخيار اطهار". ولكن هل قال الله تعالى: يكفي المرء ان يجد من هو اسوأ منه؟ وهل وعده الفطناء بأنهم لن يعتبروه من الاشرار اذا وجد شخصا يفوقه في الجهالة والعيوب؟ وهل يغدو المرء افضل اذا قارن نفسه بالسفلة والادنياء؟ لا يمكن تعلم الطيبة الا من الطيبين. يمكن ان نفهم الفارس الذي يسبق الآخرين في بلوغ الهدف او يتساءل عن عدد الخيول التي لا تزال امامه. ولكن ما جدوى التساؤل عن عدد الفرسان الذين تخلفوا ؟ وهل يفرح الخائب اذا عرف بأنه تفوق على خمسة او عشرة من الخائبين؟

فيم يجد الكازاخي السلوى والعزاء؟ تراه يقول: "لسنا لوحدنا. الجميع يتصرفون بهذه الصورة، ولا موجب للبروز على الاغلبية. الوليمة التي تحضرها مع الجميع اكبر وليمة". فهل امره الله تعالى ان يتواجد بين الجموع فقط؟ ام ان الله القدير لم يعد مقتدرا على الجموع؟ ام ان عينه تعالى كليلة عنها؟ فهل يمتلك أي كان ناصية العلوم الرفيعة؟ ام ان القلائل عليها قادرون؟ وهل وهب الله البشر عن آخرهم هبة العبقرية؟ ام ان العبقرية تنير ذهن واحدٍ من الف؟ أفلا تتعرض الجموع للاهانات والتحقير؟ وهل تهون الامور اذا اصابت الامراض نصف البشر والنصف الباقي يظل سليما معافى؟ أفلا نحتاج الى شخص مطلع جيدا على الدروب عندما تتوه الآلاف وتضل السبيل؟ ما الافضل لعابري السبيل ان تتضور كل الخيول جيوعا ام يشبع نصفها على الاقل؟ ما الافضل ان تعاني الامة كلها من الجوع ام يسلم نصفها على الاقل؟ ما عزاء الاحمق من وجود آلاف الحمقى حواليه؟ وهل يعجب العروس عريس بليد يعلن انه من عشيرة كلها بافواه ذات رائحة كريهة؟ وهل تجد العروس عزاء بعلمها ان هذا العيب لا يقتصر على خطيبها وحده؟

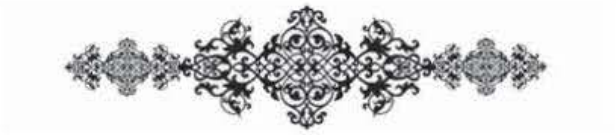

# القول الرابع والعشرين

يقال ان عدد البشر على الارض الآن اكثر من مليارين، بينهم اكثر من مليوني كازاخي.

الكازاخيون لا يشبهون أية امة اخرى في طموحهم الى الثروة والمعرفة والفنون، وفي الاعراب عن مشاعر الطيبة وحسن النية والقوة والتبجح والعداء.

نحن نعادي بعضنا بعضا ونخرب البيوت ونتجسس على احدنا الآخر دون ان نترك الاقربين يلتقطون انفاسهم.

في العالم مدن يتجاوز سكانها ثلاثة ملايين، وفي الدنيا ناس داروا على الكرة الارضية ثلاث مرات.

فالى متى نبقى نتربص ببعضنا البعض ونظل اتفه شعب بين كل شعوب الارض؟ ام انه ستحين على اية حال ايام وضاءة ينسى فيها الناس اللصوصية والخداع والنميمة والعداوة، ويتوقون الى المعرفة ويتعلمون الحرف والصنائع ويشرعون في كسب الثروة بسبل نزيهة مشروعة؟

اعتقد هذا امر مستبعد. ذلك ان مائتي شخص يطمعون حاليا في كل مائة رأس من الماشية. فهل يعود اليهم الهدوء ما لم يبيدوا بعضهم بعضا؟

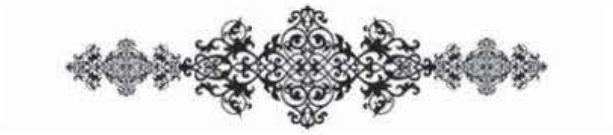

# القول الخامس والعشرين

حبذا لو توفر التعليم للاطفال الكازاخيين.. يكفيهم بادئ ذي بدء ان يتعلموا الابجدية التركية على الاقل. لكن واقعنا المشوه يحتم جمع المال قبل تعليم الاطفال. زد على ذلك ان الضرورة تستدعي الالمام بالفارسية والعربية. فهل يتمكن الجائع من الحفاظ على صفاء الذهن والكرامة الشخصية والجد والاجتهاد في طلب العلم؟ شحة المال والحزازات القبلية تؤدي الى غرس الميول الوضيعة في النفوس، كالسرقة والعنف والطمع. فاذا تواجدت الماشية امتلأت البطون، وعند ذاك يظهر الميل الى المعارف والصنائع. ويشرع الناس في التفكير بطلب العلم او بتعليم اولادهم شيئا ما.

ثم لا بد من تعلم الابجدية الروسية. فاللغة الروسية تنطوي على معارف وفنون واسرار اخرى لا حدود لها. وبغية تفادي عيوب الروس وتبني منجزاتهم لا بد من دراسة لغتهم والالمام بعلومهم. لأن الروس عندما تضلعوا في لغات اخرى واغترفوا من مناهل الحضارة العالمية غدوا على ما هم عليه الآن. اللغة الروسية ستفتح عيوننا على العالم. وعندما يدرس المرء لغات الامم الاخرى وثقافتها يقف معها على قدم المساواة ولا يهين كرامته بالتوسل والإستجداء. ثم ان التعليم فيه نفع حتى للدين.

والذي يعيش عبدا ذليلا مستعد ان يبيع والديه واهله وذويه ودينه وشرفه في سبيل التصدق بطبطبة على الكتف. والبعض لا يلتفتون الى عجيزتهم العارية، كل ما يهمهم هو ارضاء الموظفين.

العلوم والثقافة الروسية مفتاح الكنوز العالمية. ومن يملك هذا المفتاح يسهل عليه فتح كل الابواب.

الكازاخيون الذين يعلمون اطفالهم في المدارس الروسية يحاولون الاستفادة من تعليمهم بوصفه دلالة على التفوق في الحزازات القبلية. فحاول ان تتفادى هذه المقاصد. واجهد في سبيل تعليم الاطفال على كسب لقمة العيش بالعمل النزيه المعقول، حتى يقتدي الآخرون بهذه القدوة، وعندها لن نسكت على تعسف الولاة الروس طالما لا يوجد لديهم قانون منصف موحد للجميع. يجب ان نتعلم لنعرف ما تعرفه الامم الاخرى حتى نقف معها على قدم المساواة ونحمي امتنا ونكون سندا لها. لم تظهر، بعد، شخصيات بارزة بين شباننا الذين حصلوا

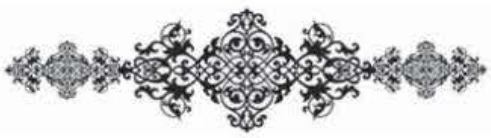

على التعليم الروسي، لان والديهم وذويهم يفسدونهم ويحيدون بهم عن الصراط المستقيم. ومع ذلك فهؤلاء الشبان افضل بكثير من الذين لم يحصلوا على التعليم اطلاقا. والمؤسف ان تعليمهم مقتصر على تفسير المفردات الدخيلة. والاثرياء نادرا ما يبعثون اولادهم الى المدارس. فهم على الأكثر يبعثون ابناء الفقراء اليها حتى يتعرضوا للاهانات من جانب المعلمين الروس. فماذا يستطيع هؤلاء المساكين ان يتعلموه؟

عندما يتشاجر البعض مع اقاربهم واهلهم يهتفون قائلين: "اهاناتكم لا تطاق، الافضل ان ابعث ابني الى العسكر واطلق شعر رأسي ولحيتي". هؤلاء لا يخافون الله ولا يخشون العار والشنار. فماذا يجني هذا الابن، ابن مثل هذا الاب، حتى ولو تلقى التعليم؟ يتعلمون كيفما اتفق، بمجرد الحضور والانصراف. فلا طموح هناك ولا اي اجتهاد. الاب يوافق على تعليم ابنه على مضض، عندما يتعهد شخص آخر بتحمل كل النفقات. فهل يوافق على انفاق المال من اجل تعليم ابنه؟

نصيحتي اليك: يمكنك الا تزوج ابنك ولا تخلف له كنوزا طائلة، ولكن وفر له التعليم الروسي من كل بد، حتى وان انفقت عليه كل ما تملك. فهذا الطريق جدير بكل التضحيات.

اتق الله واخجل من الناس. اذا كنت تريد لابنك ان يغدوا انسانا فابعثه الى المدرسة، ولا تبخل بالمال.

فما نفعه اذا ظل اميا رذيلا؟ هل يبعث السلوى في نفسك؟ وهل يذوق طعم السعادة؟ وهل يخدم امته؟

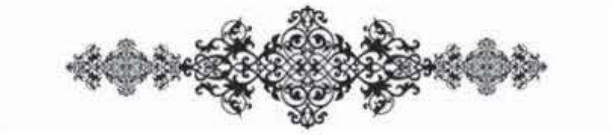

# القول السادس والعشرين

يفرح الكازاخي لحد الجنون عندما يتفوق جواده في السباق او يفوز كلبه او صقره في الصيد والقنص. ولا ادري هل تصادف في حياته فرحة اعظم؟ ربما، لا.

ولكن ما وجه ارتياحه في تفوق دابة على دابة من حيث الخفة والسرعة، وفي سقوط صريع على الارض؟ فليس هو الذي تفوق. بل ولا حتى ابنه هو الذي فاز في المصارعة. كل ذلك لأن الكازاخي لا يعرف عدوا ألد من ابن جلدته الكازاخي. فهو يفرح ويعجب اشد الاعجاب لأتفه الاشياء ويسعى من خلال فرحته الى الإساءة واثارة الحسد في نفسه.

والمعروف ان اثارة الحسد في النفوس عمدا انما هي مخالفة للشريعة واساءة الى النفس ومجافاة للعقل السليم. فأي عزاء يجده المرء في اثارة حفيظة الغير؟ لماذا يتمتع بالتلذذ والارتياح من جراء ذلك؟ ولماذا يشعر البعض بالمرارة والاسف، بل وحتى بالاهانة، لنجاحات الآخرين.

الجياد الاصيلة تتربى في هذه القرية او تلك، والصقر الحاذق والكلب الماهر يقعان في يد هذا الرجل تارة وفي يد ذاك تارة اخرى. والمصارعون ايضا ليسوا من ابناء قرية واحدة. كل تلك المنجزات ليست من ثمار ايدي البشر. والذين يشغلون المرتبة الاولى في السرعة والقوة ذات مرة لا يبقون الى الابد في مرتبة الاسرع والاقوى. فلماذا يأسف الناس، وهم يعرفون هذه الحقيقة، وكأنما يأسفون لإفتضاح نواياهم السيئة او افعالهم الشائنة؟ لماذا يشعرون بالمرارة والحسرة وكأن احدا قضى عليهم ومسح بهم الارض؟

المسألة واضحة: فالقوم الجهلة يفرحون لأتفه الاسباب. وبنشوة الفرحة يفقدون رشدهم وينسون ما يقولون وما يفعلون. ويخجلون مما لا يبعث الخجل، ولا يخجلون من السيئات والمستهجنات.

تلك هي امارات الجهالة والجنون. واذا قلت لاحد منهم تلك هي امارات الجهالة والجنون يوافقك ويقول: "نعم، هذا صحيح". ولكن اياك ان تصدق كلامه، فهو واحد منهم، واحد من الكثيرين، يرى بأم العين ويدرك بالعقل والذهن لكنه، كالدابة المسيّرة، عاجز عن التخلي عن السيئات. ولا احد بقادر ان يقنعه ويوقفه عند حده او يعيده الى رشده. فطالما تعود على السيئات لن يكف عنها ابد الدهر. ولا يفرق بينه وبين عادته السيئة الا الرعب الشديد او الموت.

ولن تجد احدا يعترف بخطأه ويحاول ان يكبح جماح غلوائه.

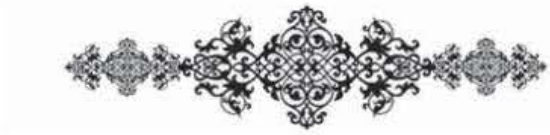

# القول السابع والعشرين

اليكم ما قاله سقراط لأحد تلاميذه، وهو العالم ارسطوديموس بشأن خدمة الخالق القدير. فقد كان ارسطوديموس غالبا ما يسخر من المؤمنين.

- ما رأيك يا ارسطوديموس، هل هناك بشر في الدنيا تستحق افعالهم الاعجاب والتقدير؟

- ما اكثرهم يا معلم.

- اذكر لي واحدا منهم على الاقل.

- انا معجب بملاحم هوميروس ومآسي سوفوكليس، وبقدرة البعض على تقمص صور الآخرين، وانا معجب برسوم زيفكسيسوس - واورد ارسطوديموس عددا آخر من الاعلام.

- من منهم، يا ترى، يستحق اكبر الاعجاب؟ ذاك الذي يبدع صورة الانسان الجامدة ام الخالق العلي القدير الذي خلق الانسان بعقل وروح حية؟

- هو الاسمى، عندما تظهر مخلوقاته بقوة العقل، وليس بمحض الصدفة.

- في الكون كثير من الاشياء النافعة. نفع بعضها واضح للعيان، ووظيفة بعضها الآخر يتعذر تحديدها من مظهرها الخارجي. فما هي، في رأيك، مخلوقات قوة العقل ومخلوقات الصدفة؟

- بالطبع الاشياء الواضحة النفع هي مخلوقات العقل.

- طيب، العلي القدير خلق الانسان ووهبه خمس حواس عارفا بضرورتها لبني آدم. اعطاه العينين ليبصر. وبدونهما ما كان بمقدورنا ان نمتع الانظار بجمال الدنيا. وكي نتمكن من اغماض العينين وفتحهما منحنا الجفون، ومنحنا الاهداب لوقايتهما من الريح والقذى، ومنحنا الحاجبين لإبعاد العرق المنصب من الجبين.

ولولا الاذان لما استطعنا ان نسمع الهدير ولا الاصوات الناعمة ولما تمكنا من التمتع بالاغاني والموسيقى. ولولا الانف لما فرقنا بين العبق والاريج ولما ملنا الى العطور ولما نفرنا من الروائح الكريهة. ولولا اللسان واللهاة لما فرقنا بين الحلو والمر، واللين والجاسئ.

أليس في ذلك نفع لنا؟

تتواجد العينان والانف على مقربة من الفم ليسهل علينا ان نرى ونشم ما نأكل. اما الثقوب الاخرى الضرورية لنا والتي تثير الاشمئزاز فهي متواجدة بعيدا

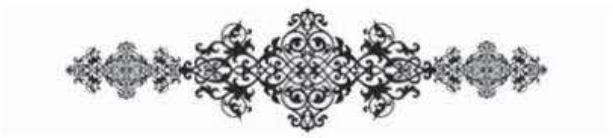

عن الاعضاء الفاضلة الواقعة في الرأس.

أفليس ذلك دليلا على فكرة الخالق في خلقنا؟

وبعد تأمل قصير اعترف ارسطوديموس بأن الخالق حقا على كل شئ قدير وانه خلق مخلوقاته بحب كبير. فقال:

- خبرني اذن، كل المخلوقات تشعر بالحنان والحب لصغارها، وكل الاحياء تبغض الموت وتسعى الى العيش اطول مدى ممكن وتحرص على اطالة النوع. كل شئ خلق من اجل الحياة وادامتها. أفليس الحب هو ما جعل الله يخلق الكائنات مولدة للحياة محبة لها؟

- اسفي عليك يا ارسطوديموس. لماذا تظن ان الانسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك عقلا؟ ذرة التراب التي يمشي عليها الانسان الا تشبه الجسم البشري؟ أفليست رطوبة بدنك قطرة في رطوبة الارض؟ من اين جاءك العقل ؟ مهما كانت الجهة التي جاء منها فبفضل الروح التي وهبت لك صرت وعاء يتسع لهذا العقل الرفيع. انك ترى كمال ووحدة وتناسق القانون الذي نشأت الطبيعة وفقا له، تراه فقط، ولكنك عاجز عن ان تعي ما تراه.

فما رأيك، والحال هذه، الطبيعة ناتج لا هدف له جاء بمحض الصدفة، ام انها من خلق خالق يتحلى بعقل لانهائي؟ السر الذي لا يقوى الوعي البشري على اكتناهه انما تفسره قوة السنة الثابتة، ان لم نقل ارادة العقل، تلك السنة التي وفقت بين العقلانية والرسالة في كل المخلوقات.

- كل ما تقوله صحيح . واضح ان الخالق يمتلك عقلا عظيما حقا. وانا لا اجادل في قدرته وجبروته. ولكن ما يدهشني دوما ان الخالق بحاجة الى تضرعاتي وصلواتي.

- انت على خطأ يا ارسطوديموس. اذا كان هناك من يسهر على سلامتك فانت مدين له. وهل يعقل انك بحاجة الى توضيح لهذه الحقيقة البسيطة؟

- من اين لي ان ادري هل يسهر على سلامتي ام لا؟

انظر، اذن، الى كل الحيوانات والى نفسك. فهل نستوعب الواقع بشكل واحد؟ الانسان قادر على التفكير بماضيه وحاضره ومستقبله. اما الحيوان فلا يتذكر ماضيه وحاضره الا بغموض، ولا يفكر في المستقبل اطلاقا. قارن بين مظهر الانسان ومظهر الحيوان. الانسان يقف مستقيما، على قديه، ليجول ببصره فيما حواليه. وهو قادر على اخضاع اي حيوان لإرادته. اما الحيوانات فتعول على قوائمها واجنحتها فقط، ولا تجيد اخضاع ابناء جلدتها. ولو خلق الله الانسان

عاجزا كالحيوان لما كان يصلح لشئ. لقد خلق الانسان ليكون سيدا لكل الاحياء على الارض. ولو كانت الحيوانات تمتلك عقلا بشريا لكان مظهرها الحالي يستجيب للقدرة على العمل وعلى تعليم الآخرين البلاغة والفضائل. حكم عقلك، هل يستطيع الثور ان يبني مدينة ويصنع اداة او يبدع تحفة؟ عندما منح الله الانسان عقلا رفيعا ووضع هذا العقل في بدن مكتمل يجمع بشكل متناسق بين قدرة الروح وجمال الخلق انما ساق الدليل على انه خلق الانسان بحرص وعناية. أفليست البشرية ملزمة، والحال هذه، بأن تطيع الله؟

بهذا التساؤل انهى المعلم حواريته.

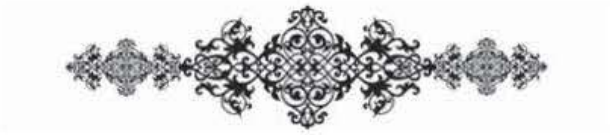

# القول الثامن والعشرين

ايها المسلمون! على وجه البسيطة اغنياء وفقراء، اصحاء ومرضاء، عقلاء واغبياء، اخيار واشرار. واذا سئلتم عن سبب ذلك اجيبوا: تلك هي مشيئة الله.

يصادف ان يغدق الله المال على كسول يحتقره الجميع، بينما يكدح تقي نزيه لكنه يعيش في عوز وضنك ويعيل زوجته واطفاله بشق الانفس. والانسان الهادئ الوديع غالبا ما يعاني من المرض والخور، بينما يتمتع اللص والنصاب بوافر الصحة كالدواب. ويولد للوالدين بعينهما طفل ذكي وآخر غبي. ويهيب الخالق بالجميع ان يتحلوا بالفضيلة ويعيشوا بنزاهة. ويعد للمتقين فسيح جنانه وللضالين جهنم وبئس المصير، فيهدي من يشاء الى الصراط المستقيم ولا يأخذ بيد آخرين. فهل يتعارض ذلك مع رحمة الله وعدله؟ الناس وما يملكون ملك لله. وهو يتصرف بملكه كما يشاء.

فكيف نفهم افعاله جل جلاله؟

هل نلحف في القول ان الخالق معصوم، وبالتالي نعترف بعدم كماله وعدم معصوميته ونلزم الصمت خوفا ورهبة؟ فماذا، والحال هذه، يكسب الفاني بجهوده وحرمانه؟ كل شئ يجري بمشيئة الله. ولا موجب لملامة الناس. فهم ابرياء. أفلا ينفذون مشيئة الله عندما يفعلون الخير ويقترفون الشر؟

الانسان العاقل يجب ان يعلم ان واجب المؤمن هو فعل الخير. والعمل بالمعروف لا يمكن ان يخشى امتحان العقل. واذا لم نفسح المجال للعقل فماذا نفعل بالحقيقة القائلة: فليعرفني كل ذي عقل؟ ولو كانت في ديننا هنة فكيف يمنع العاقل من التفكير به عز وجل؟ والى م يستند الدين لولا وجود العقل؟ وما قيمة الخير بدون الايمان؟ كلا، عليك ان تفهم وتصدق بأن الخير والشر من عند الله، ولكن ليس هو الذي يمارسهما. لقد خلق الله الغنى والفقر، ولكن ليس هو الذي جعل الناس اغنياء وفقراء. لقد خلق الله الامراض، ولكن ليس هو الذي يرغم الناس على المعاناة بسببها. نعم، والا فكل شئ باطل.

# القول التاسع والعشرين

الحكم والامثال الكازاخية تستحق الاهتمام، لكن بينها ما لا يرضي الله وعباده.

يقول المثل: "المساكين ينسون الخجل". لعن الله حياة لا تعرف الخجل. اذا كان هذا المثل ينطوي على نصيحة طبية بعدم الاستنكاف من الخدمة في اي عمل ثقيل فلا عيب في هذا العمل. فان كسب العيش بنزاهة بدلا من التسول طلبا للصدقات او التكاسل تهاونا عن العمل انما هو من نصيب الانسان الذي لديه ضمير.

"الشاطر يستطيع ان يستدر عطف الثلوج" و"التوسل بمهارة يوفر كل الصدقات" - تلك هي الكلمات التي لعنها الله. أليس استخلاص الثروة من الارض والعمل بعرق الجبين افضل من الشطارة والتفنن في التوسل واستجداء الفتات من موائد الذوات؟

" اذا لم تكن ذائع الصيت فاحرق الحقل تشتهر". ما ضرورة هذه الشهرة الكريهة؟

" ان تكون ناقة نسولا ليوم واحد افضل من ان تبقى بعيرا عقيما مائة يوم". ما نفع حياة تهدر ليوم واحد في بطش لا يجلب الا الخراب؟

"بريق الذهب يدفع حتى الملاك عن الصراط المستقيم". فليقع الذهب فريسة على صراط الملائكة. ما حاجة الملاك اليه؟ الناس يؤلفون هذه الاقوال ليبرروا جشعهم لا غير.

"الخزينة المملوءة اكثر حنانا من الوالدين ". حياة المرء اثمن من قصر الذهب. ما قيمة حياة ذاك السافل الذي تبدو الخزينة في عينيه اكثر حنانا من والديه؟ لا يستبدل الوالدين بالذهب الا المحروم من نعمة العقل والشرف. فالوالدان يكسبان المال حرصا على الابناء. والذي يقارن ابويه بالخزينة كافر جاحد.

لا بد من الحذر اثناء تكرار امثال سائرة كتبت بحبر الصفاقة والجهالة.

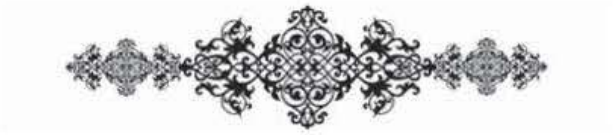

# القول الثلاثون

يقيم بيننا من ينعتون "بالمتبجحين المهذارين" الذين لو ركبت اربعين منهم لما تمكنت ان تبتعد عن القرية. فما نفعهم؟ ومن يستفيد منهم؟ انهم لا يتحلون بالعقل السليم ولا الاعتزاز بالنفس ولا سعة الافق ولا عمق التفكير، وهم لا يتميزون بالقوة والبسالة والنزعة الانسانية والضمير.

يقول الواحد منهم متهاونا مصعرا خده: "دعك من هذا. من الافضل يا ترى؟ رأس يتدلى من سرج الغير؟ هل يضع اللحم في قدري او يعطيني ماشية حلوبا؟".

او يتفوه بتصميم مستميت: "هل ابخل بحياتي؟ ما قيمتها؟ انا مستعد لتلقي الرصاص والنفي من اجل المعروف. فلا مفر من الموت على اية حال. الكل فانٍ الا الله".

فهل صادفتم مرة كازاخيا تصرف بالفعل وفقا لهذه الكلمات؟ انا لم ار بينهم احدا انصاع لسلطان الموت، في حين انهم لن يعبروا ابدا عن خوفهم منه. وفي المناسبات يقول الواحد منهم مشيرا براحة يده الى رقبته استعدادا للتضحية: "فليقطعوا رقبتي حالا ان كذبت". لو كانت هذه الاقوال صادقة لأدهشنا قائلها بشجاعته الخارقة ان لم يكن بذهنه الثاقب. ولكن بم ننعت ذاك الذي يطلق التهديدات امام الجبناء المستعدين للفرار عبر كل الشقوق خوفا من المنازلات الجادة؟ واذا كان ذلك مجرد شجاعة لفظية يهدف من ورائها الى كسب اعتراف ضعاف النفوس فما اشد غضب هذا الكافر؟!

يالهي، لو كان يتحلى بطيبة القلب والسخاء والنزاهة والبسالة والايفاء بالوعد اما كنا نرى تلك الخصال الحميدة بمجرد ان ننظر اليه؟!

كلا، انه من تلك الحثالات التي يقال عنها: "في الوجه الذي لا يعرف الخجل حتى الفك لا يعرف الكلل".

# القول الواحد والثلاثون

ثمة اربعة اسباب لاستيعاب وحفظ ما تسمعه الاذن:

اولا - لا بد للمرء ان يرسخ اقدامه روحيا ويتخذ موقفا ثابتا.

ثانيا - لا بد من الانصات الى نصائح النابهين بصدر مفتوح وباهتمام واستعداد ورغبة في استيضاح مغزى القول.

ثالثا - لا بد من مذاكرة هذه الكلمات مرارا والتمعن فيها وترسيخها في الذاكرة.

رابعا - لا بد من تفادي شوائب الفكر ومقاومتها حتى اذا تعرضت للاغواء من جانبها.

شوائب الفكر هي التهاون واللامبالاة والضحك بلا سبب والميل الى التأمل الحزين والنوازع الفتاكة. تلك هي الشوائب الاربع التي تفتك بالعقل والموهبة.

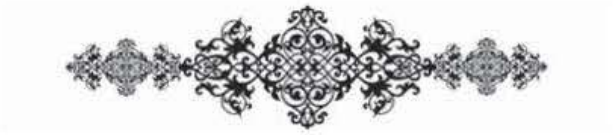

# القول الثاني والثلاثون

من يطمح الى امتلاك ناصية العلم يجب ان يعرف الشروط التي يتعذر بلوغ الهدف بدونها.

اولا - اذا كسبت المعرفة لا تطمع في الانتفاع منها. ممارسة العلم تتطلب، اول ما تتطلب، حبه والتوق اليه. اذا كنت تقدر المعارف كثروة سامية فان كل اكتشاف لحقائق جديدة يبعث في نفسك الهدوء والدعة والارتياح. تذكر جيدا ما هو جديد عليك، وعند ذاك يظهر لديك نزوع الى البحث وحب العلم، والذاكرة تستوعب وتحتفظ جيدا بما رأته وسمعته.

واذا كنت مشغول البال بأمور اخرى، وتنشد العلم من اجل تكديس المال، فان موقفك من المعرفة سيكون مثل موقف زوجة الاب من ابنه. اذا كانت الروح والافكار ميالة حقا الى العلم فالعلم نفسه يميل اليها ويغدو سهل المنال. واذا كان الميل قاصرا منقوصا يغدو الاستيعاب ايضا قاصرا منقوصا.

ثانيا - اذا درست العلوم ضع نصب عينيك اهدافا واضحة ونبيلة، ولا تسع الى كسب المعارف من اجل مجادلة الآخرين. الجدال، في الحدود المعقولة، يساعد على ترسيخ المعتقدات، لكن الافراط فيه يفسد الانسان. لأن هواة المساجلات اللفظية غالبا ما يثيرون الجدل ليس من اجل استيضاح الحقيقة، بل من اجل التباهي بالمعرفة والتفوق على الآخرين. هذا النوع من الجدل يثير الحسد ولا يزيد في انسانية الانسان ولا يخدم العلوم، بل على العكس يشوش على الناس ويحيد بهم عن سواء السبيل. وذلك من عمل المشاغبين. ان الذي يحيد بمئات الناس عن سواء السبيل لا يسوى خنصر من يعيد ولو شخصا واحدا الى الصراط المستقيم.

صحيح ان الجدل احد الطرق المستخدمة في العلم. الا ان الذي يتمادى فيه يمكن ان ينحدر الى مستوى الكلاب المسعورة والنمامين الحقودين، ولا يستنكف في الجدال من الكذب والسباب والبذاءة التي تحط من كرامة الانسان.

ثالثا - اذا بلغت الحقيقة لا تتراجع عنها حتى لو هددوك بالموت. واذا كانت معارفك عاجزة عن اقناعك فلا تتصور ان شخصا ما يمكن ان يقدرها. واذا كنت نفسك لا تقدر قيمة معارفك فكيف تنتظر الاعتراف بها من الآخرين؟

رابعا - ثمة وسيلتان لمضاعفة المعارف، وهما الملاحظة والمحافظة. ويجب ان يتحسنا ويبلغا الكمال بلا كلل او اهمال. ولن تتمكن من زيادة معارفك ما لم تعمل

على تقوية هاتين الوسيلتين.

خامسا - سبق وتحدثنا عن عيوب العقل الاربعة الفتاكة، ومن بينها اللامبالاة والخمول او التهاون. اناشدك يا روحي، بالله عليك، احذري هذه الشرور. فهي مؤذية فتاكة لتعاليم الله ولعباده، للعقل وللضمير. انها عدو الجميع. ولكن هذه العيوب لا تتواجد في موضع يتواجد فيه الضمير.

سادسا – خلُق الانسان هي الوعاء الذي يحفظ العقل والمعرفة. فهذب خلقك. اذا انسقت وراء الحسد وخفة العقل وتأثرت سريعا بأقوال الغير وبالهوايات العابرة يمكن ان تبدد صلابة العود. ولن يعود التعليم بالنفع اذا انعدم الوعاء المتين لحفظ المعارف.

ولكي يتمكن المرء من بلوغ الهدف المنشود ومن اداء الواجب ينبغي ان يعود خلقه وطباعه على الثبات والصلابة والعزم وقوة الارادة التي تصون واقعية الحكم والتفكير ونقاوة الضمير.

كل شئ يجب ان يخدم العقل والضمير.

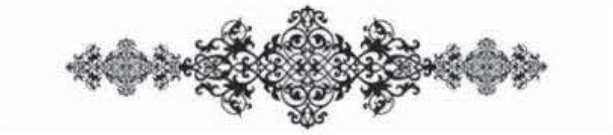

# القول الثالث والثلاثون

اذا كنت تنشد الثروة تعلم الصنائع. المال يتبدد بمر الزمن والمهنة ثابتة لا تتبدد. من يبيع ثمار صنائعه بلا خداع او تضليل يعتبره الناس من الاولياء الصالحين. لكن الذين وهبهم الله قدرا من المهنة والصنائع لا يتفادون العلل والعيوب.

فهم، اولا، لا يبحثون عن صناع افضل ليستفيدوا من خبرتهم، ولا يطمحون الى المزيد من المهارة. انهم مقتنعون بالقليل الذي يملكون ويعتبرونه كافيا فيميلون الى الكسل والخمول.

ثانيا- لا بد من المواظبة على العمل دون كلل. اما هم فحالما يمتلكون رأسين من الماشية او ثلاثة يتصورون انفسهم غارقين في النعيم ويأخذون في التكاسل والتباهي والتعالي ويمارسون عملهم بمنتهى الخمول والاهمال.

ثالثا- ما ان يطلب منهم احد طلبا ويقول "يا اخي الاسطه، انت سمح سخي" او "هل يصعب عليك ان تفعل لي كذا وكذا؟" حتى يفكروا بغرور انهم بلغوا المرحلة التي يتوجه فيها الناس اليهم مستعطفين. فينزلقون الى الكبرياء وينساقون وراء التزلف ويضيعون وقتهم الثمين ويقدمون الحجة للمتزلف الماكر كي يتشفى منهم ويشمت بهم.

رابعا- هؤلاء الاشخاص يسعون الى كسب ود اي كان. ويكفي الوصولي ان يهديهم حتة تافهة او يعدهم بمساعدة بسيطة او يدعي بصداقتهم حتى تراهم يشعرون بالارتياح لأن احدا بحاجة اليهم ولانهم يصلحون للصداقة. وهنا تتجلى سذاجتهم وقلة معرفتهم بالحياة. فعندما يصدقون اللسان الكاذب ويفرحون اشد الفرحة لترحاب الصديق المزعوم يبذلون قصارى جهدم لارضائه ويقتسمون معه خيراتهم ناسين الطعام والشراب والثياب والهموم والواجبات. وعندما تلم بهم الفاقة يستدينون المال على مضض واضطرار. انهم يضيعون وقتهم جزافا في ارضاء الغير ويفقدون مداخيلهم وينجرون الى الخلافات بسبب الديون ويفارقون خصالهم الانسانية ويعيشون في فقر واملاق وفي ذل ومهانة.

فما سبب ذلك؟ الناس القادرون على تضليل اي كان يقعون انفسهم احيانا، وبمنتهى السهولة، في شباك التضليل. فمن حفر بئرا لأخيه وقع فيه.

# القول الرابع والثلاثون

يعرف الجميع ان البشر فانون، وان المنون لا تعاجل العجزة والشيوخ وحدهم، ولكنها اذا اختطفت احدا لن تعيده الى قيد الحياة ابدا. الكازاخي يصدق بهذه الحقيقة مكرهاً، ولا يتفهمها من خلال التأمل العميق.

يقول الكازاخيون انهم يؤمنون بالله الذي سيسألهم عن كل شئ بعد الممات، ويثيبهم على الحسنات ويعاقبهم عن السيئات. وان ثوابه وعقابه يختلفان عما في هذه الدنيا، فهو سخي وهاب، وهو شديد العقاب. لكنني لا اصدق ما يقولون. لانهم لا يصدقون القول ولا يؤمنون بوعي واخلاص. ولو كانوا يؤمنون بذلك لما فعلوا الا الاحسان ولما حزنوا قط. فهل يمكن اقناعهم بشئ آخر اذا كانوا يتقبلون حتى هذه الحقائق بمنتهى الغموض؟ فما السبيل الى اصلاحهم؟ وهل يجوز ان ننعتهم بالمسلمين الصالحين؟

من يرغب في تفادي العذاب في الدنيا والآخرة يجب ان يتذكر: لا تستطيع النفس ان تحتوي في وقت واحد فرحتين ورغبتين وكآبتين. هذا مستحيل. والذي يعتبر فرحات الدنيا واحزانها اسمى من هموم الآخرة وافراحها ليس من المسلمين.

ولذا يمكنكم ان تحكموا بانفسكم على مدى اسلام الكازاخي. لو صادف شيئين اولهما مخصص للآخرة والثاني للدنيا وهو يخير في انتقاء احدهما لاختار الثاني من كل بد، معولا على امتلاك الاول في مرة اخرى، واذا لم يحالفه الحظ فالله تعالى يسامحه على سوء الاختيار. وفي ساعة الاحتضار يقسم هذا الشخص الأيمان الغلاظ بانه لا يفضل افراح الدنيا على خيرات الآخرة. فكيف نصدقه يا ترى؟

الانسان سند الانسان. وكل شئ في الحياة - الميلاد والتربية والشبع والجوع والحزن واللوعة وشكل البدن البشري والطريق الذي يرى فيه الانسان النور ويفارق الحياة كل ذلك متماثل عند الجميع. وفي الآخرة ايضا- الموت والدفن والفناء ويوم الحساب - كذلك متماثل ايضا. من يدري؟ هل ستعيش خمسة ايام اخرى ام لا ؟ كل الناس يستضيفون بعضهم بعضا. والانسان نفسه ضيف على الدنيا، فهل من موجب لخشونة الكلام والعداوة بسبب المال، والحسد بسبب السعادة، والزعل على بعضنا البعض لأتفه الاسباب ؟

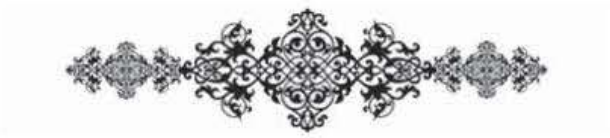

فهل يجوز ترك عبادة الله والتضرع الى البشر؟ هل يجوز ان تبتهل الى الله لا من اجل ان يبارك لك عملك بل من اجل ان ينتزع الخيرات من غريمك ويقدمها اليك؟ وهل يستطيع الخالق ان يظلم شخصا من اجل شخص آخر؟

وهل يجدر بالانسان ان يجادل الحكماء ويصر على رأيه وهو لا يجيد الكلام ولا يتحلى بالعقل السليم والتعليم؟

واي انسان هو يا ترى؟

# القول الخامس والثلاثون

في يوم القيامة يدعو الله جل جلاله الحجاج والنساك والمتصوفين والملالي والمحسنين والسادة من آل البيت، ويستجوبهم بصرامة. ويضع في صف منفرد اولئك الذين كانوا من هؤلاء لكنهم خدموا الناس ومارسوا الاحسان في حياتهم من اجل الجاه والثروة. ويضع في صف آخر اولئك الذين خدموا الناس لوجه الله وسعوا الى كسب رضاه.

ويقول للذين حمدوه لغرض في نفوسهم: كنتم في حياتكم الدنيا تخدمون من اجل المنزلة وكسب الاحترام. ولا مجال هنا لهذه الامور. انتهت حياتكم السعيدة وحانت نهاية تحكمكم في رقاب الناس. لن تتمتعوا بالاحترام هنا، بل ستسألون عن كل افعالكم وتتلقون العقاب. وهبتكم الحياة والثروة فاستخدمتموها لتكديس المال وتضليل الناس متظاهرين بالحرص على الآخرة.

ويقول للذين خدموا الناس لوجه الله: سعيتم بكل افعالكم وحياتكم الى ارضائي، وانا لكم شكور. واعددت لكم مكانا فسيحا في الجنان. وربما تجدون هنا اصدقاء لكم، او الذين احسنتم اليهم او الذين آزروكم في الاحسان. فافرحوا بما رزقناكم!

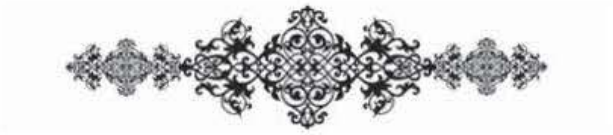

# القول السادس والثلاثون

جاء في حديث شريف لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: لا دين لمن لا حياء له. ويقول المثل الشعبي الشئ ذاته: الحياء من الايمان. ويتضح من ذلك ان الحياء جزء لا يتجزأ من العقيدة والايمان. ولكن ما هو الحياء؟

هناك حياء نابع من الجهالة. وهو اقرب الى خفر الطفل عندما يستحي من التفوه بكلمة او يهاب الاقتراب من الغريب مع انه لم يقترف ذنبا ازاء احد. ان الخجل مما لا موجب للخجل منه دليل واضح على الحماقة والخسة اذا كان المرء بريئا من الذنوب بحق الشرعية وبحق الضمير. اما الحياء الحقيقي فهو الذي يشعر به المرء بعد اقتراف سيئة تتنافى وسنن الشريعة وتتعارض مع الضمير والكرامة. وهناك نوعان من الحياء:

احدهما عندما تشعر بالخجل لذنب شخص آخر وليس لذنبك. تشعر بالخجل لانك تشفق على ذلك الشخص وتفكر: يا الهي، ما دهاه؟ لماذا تصرف بهذا الشكل غير المحمود؟

والنوع الثاني صادر بدافع من الضمير، بسبب اثم بحق الشريعة وبحق الضمير والانسانية، اثم اقترفته خطأ او بمحض الصدفة او الغريزة. وربما لا يعلم احد غيرك بإثمك، لكن عقلك يتعذب ومعدنك يتعذب ويعاقبانك على ما فعلت. وتتعذب انت فلا يقر لك قرار ولا تقوى على مواجهة الناس بالابصار.

الذين يعانون هذا النوع من الحياء يمتنعون عن الطعام والشراب وتعاف جفونهم النوم، ويحدث ان ينتحروا في ساعة اليأس والقنوط. الخجل خصلة انسانية كريمة تحمل المرء من الداخل على الاعتراف بذنبه وعلى تقبّل العقاب. في تلك الاثناء يتوقف الذهن عن التفكير وينعقد اللسان فتتبدد الكلمات. ولا وقت لكف الدموع ومسح الانوف. ويغدو المرء في حالة يرثى لها ككلب مسكين مقرور. فهو لا يستطيع ان يرفع انظاره الى الناس، بل لا يستطيع ان يرى شيئا على الاطلاق. والذين يعرفون هذا العذاب ولا يسامحون المذنب، بل يمعنون في تعذيبه، لا يعرفون الرحمة والانسانية.

ارى الناس الآن لا يخجلون من شئ على الاطلاق ولا تلوح على وجوههم سمات الحياء. يقول الواحد منهم: "لقد اعترفت بذنبي، فماذا تريدون مني اكثر؟". او يقول مبررا فعلته: "طيب، تجللت بالعار والشنار، لكنك انت ايضا تتصرف على

هذا النحو"، او يقول "فلان وعلان فعلا كيت وكيت، لكنهما يتبختران على الارض وكأن شيئا لم يحدث. اما انا، بالمقارنة معهما، فيمكن القول انني لم اقترف ذنبا. زد على ذلك كان لدي سبب وجيه يدفعني الى التصرف هكذا". وبدلا من ان يخجلوا مما فعلوا، يحاولون تبييض صفحتهم.

فكيف ننعت الواحد منهم؟ هل هو انسان خجول ام لا يعرف الخجل؟ الحديث الشريف لا يجيز لنا ان نسميه بالحيي الخجول، ولا يجيز لنا ذلك كلام الحكماء... وكيف نحكم على هؤلاء الناس؟ هل لديهم ايمان ام لا ؟!

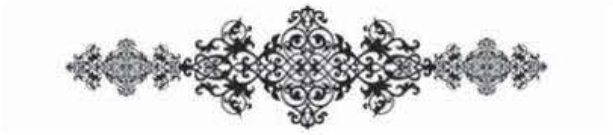

# القول السابع والثلاثون

١ - حكم على خصال المرء كالآتي: كيف بدأ عمله لا كيف انجزه.

٢ - مهما كانت الفكرة باهرة فان ضوءها يخبو عندما تمر بشفتي الانسان.

٣ - عندما تنصح الجهول، المغرور، بقول الحكمة، تشعر بالسلوى احيانا، لكن تلك الحكمة لا تترك اثرا في اغلب الاحيان.

٤ - اعمل المعروف للعاقل الذكي، اما الاحمق فلن ينتفع منه.

٥ - رب اخ لم تلده امك.

٦ - الكريم يطلب الكثير ويقتنع بالقليل، والبخيل يطلب الكثير ويبقى مستاء حتى لو اعطيته اكثر مما طلب.

٧ - العامل لصالح نفسه كالحيوان الذي يرتع، والله يحب العاملين في سبيل الواجب الانساني.

٨ - من سمم سقراط واحرق جان دارك وقتل قيس ابن الملوح وخذل النبي في موقعة احد؟ الرعاع. لا عقل للرعاع. حاول ان تهديهم الى الصراط المستقيم.

٩ - الانسان ابن زمانه. واذا كان سيئا فالذنب يقع على ابناء زمانه ايضا.

١٠ - لو كانت السلطة في يدي لقطعت لسان من يقول: لا صلاح للانسان.

١١ - الوحدة شر من القتل. كل المصائب تنهال على المرء في وحدته. الدنيا غاصة بالسيئات، لكن السلوى والملذات موجودة فيها ايضا. فمن يتحمل الاولى بنفس عزيزة ويصمد في وجه الثانية.

١٢ - من منا لم يواجه المصائب؟ لا يفقد الامل الا الضعيف. كل شئ في العالم يتبدل، هذا صحيح، ولكن الشر ايضا ليس ابديا. ألا يأتي الربيع الزاهر الفياض بعد صقيع الشتاء؟

١٣ - اذا لاذ الرجل بالصمت غاضبا فقد انطوت نفسه على حدة الغضب. اما الذي يلفظ حمم الشتائم المقذعة فهو، عادة، جبان او متبجح.

١٤ - الفوز والسعادة يسكران الانسان. ولا يجيد الحفاظ على برودة الاعصاب وحكمة العقل الا واحد من الف.

١٥ - اذا كنت تنشد التوفيق فابدأ العمل بحكمة وعقل.

١٦ - المنصب الرفيع كالصخرة العالية تتسلقها الافعى الزاحفة ببطء ويطالها الصقر السريع. الحاسدون يكيلون المديح للذين لم يبلغوا القمة بعد، وهؤلاء

السذج يفرحون للثناء والمديح.

١٧ - الدنيا اوقيانوس، والزمن هبوب الريح، والامواج المبكرة الشقائق الاكبر والموجات المتأخرة الشقائق الاصغر. الاجيال تتعاقب فيما تبدو هادئة ثابتة راسخة.

١٨ - الانسان البسيط الذي يتحلى بالفطنة والذكاء اسمى من الملك الذي حالفه الحظ ورفعته الاقدار. الشاب الذي يبيع ثمار عمله اكرم من الشيخ الذي يتاجر بلحيته.

١٩ - المتسول الشبعان شيطان وابن شيطان، والمتصوف الكسول منافق مراء.

٢٠ - صديق السوء كالظل. عندما تطلع الشمس لن تتخلص منه، وعندما تتلبد الغيوم لن تجد له اثرا.

٢١ - كن صريحا مع الذين يعانون من الوحدة، وتمسك بعلاقات طيبة مع من له اصدقاء كثيرون. واحذر الخاملين واسند المظلومين.

٢٢ - لا جدوى من غضب عاجز، وحب خائن، ومعلم بلا تلاميذ.

٢٣ - عندما تسعى الى السعادة يتمنى الجميع لك الخير، وعندما تبلغ هدفك لا يتمنى لك الخير احد سواك.

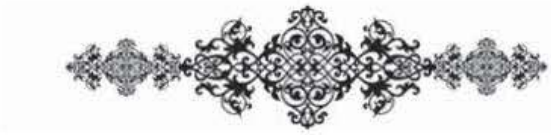

# القول الثامن والثلاثون

يا ابنائي، يا قرة عيني وسلوى فؤادي ورجائي! ها قد فرغت من كتابه بضع كلمات عن السلوك والافعال البشرية، واقدم لكم ما كتبته وصية للذكرى. اقرأوه بانتباه واهتمام، وتعمقوا في مغزى هذه الكلمات فتطفح افئدتكم بالحب. حب الانسان لا ينفصل عن عقله وانسانيته ومعارفه. والمنطلق الرئيسي والسبب الاول لهذه الخصال هو الكمال الذي يتلقاه الانسان منذ الميلاد متمثلا في الصحة المتينة والمحيا الرائع، والباقي كله يتوقف على نبل الوالدين وعلى حكمة المرشدين وطيبة الاصدقاء. الحب هو اصل الطموح والفهم. والعقل والانسانية والمعارف تثير اهتمام الانسان بالعلوم.

الطفل في سن مبكرة لا يميل الى التعلم بمحض ارادته. ويقتضي الامر ترهيبه او ترغيبه حتى يشعر بعطش الى المعارف. والطفل الذي يتوق الى المعارف يمكن اعتباره انسانا ويمكن الامل في كونه سيتوق الى معرفة الله ومعرفة نفسه ومعرفة العالم المحيط به، وسيتعلم كسب الخيرات دون ان يفرط في شرفه ونزاهته وسيتفادى السيئات. والا سيحكم عليه بالجهالة، وفي افضل الاحوال يحصل على معارف سطحية للغاية. ومن المؤسف ان الكثيرين من الوالدين الذين ربوا اطفالهم أسوأ تربية يعهدون بهم فيما بعد الى الملالي ليرعوهم، فلا نفع من هذه الرعاية ومن هذا التعليم. فالاولاد الفاسدون منذ الصغر لا يمكن ان يهتموا بالمعرفة والتدين ويبدوا احتراما للمرشدين، ولن ينشأوا اناسا كاملين ولا مسلمين حقيقيين ولا ملالي نزيهين. اصعب الامور غرس النزعة الانسانية في نفوسهم، لأن الله هو السبيل الى الحقيقة. ولأن الصدق والاخلاص من نقائض الشر وروافض الباطل. فهل يلبي الصديق دعوة صديقه اذا بلغته من خلال عدوه؟ لن يبلغ المرء الحقيقة اذا لم تكن نفسه تنطوي على حبها. والمعارف الانسانية تستحصل بحب الحقيقة والتعطش الى اكتشاف اسرار الطبيعة وجوهر الاشياء. وتلك ليست المعرفة الالهية الشاملة، فان حب الاستطلاع والتوق الى العلوم يوفران للانسان المعرفة على قدر عقله وقدرته على الهضم والاستيعاب.

ولكن من اللازم في المقام الاول حب الله جل جلاله. والمعروف ان العلم من سمات الله تعالى، ولذا يعتبر حب العلم دليلا على الانسانية والاخلاص. ولن يبلغ احد ذرى العلم اذا كان يمارسه من اجل الطمع والابتزاز والاهداف الشخصية الانانية الوضيعة. فلتجد الثروة والجاه والامجاد من تلقاء ذاتها الطريق

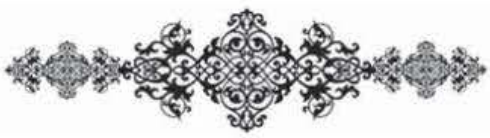

الى الانسان. وعند ذاك فقط يمكنها ان تغدو زينة لائقة به. اما الخضوع لها فيحط من كرامة الانسان.

اذا كسبت حب الحقيقة ورغبت في التعلم فانصتْ بانتباه واجتهد بمثابرة واخلاص. والمتدينون بالاسلام يجب ان يعرفوا في المقام الاول حقيقة الايمان، لان الايمان ليس خضوعا اعمى. فلنفترض اننا آمنا بالله وبآيات القرآن المعبرة عن إرادته وبرسوله محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم. فماذا يعطينا هذا الايمان؟ انت تؤمن بالله في سبيله او في سبيل نجاتك؟ الله العظيم قدير جليل ولن يؤذيه كفرك. واذا كنت تقول ان ايمانك ضروري لك شخصيا فيعني انك تؤمن جيدا. ولكن اذا كان هذا ايمانا لمجرد الايمان فلن يعود عليك بالنفع. ويكون ايمانك حقيقيا خالصا لوجه الله ويعود بالنفع عندما تتشوق بنفسك الى ذلك. ويجب ان تعرف بأي جهود يتم الايمان الرشيد الواعي...

قلت انك تؤمن بالله، بسيمائه واسمائه. ويتوجب عليك اذن ان تعرف اسماءه الحسنى وتدرك عظمة مغزى كل صفة من صفاته الثماني اذا كنت تعتبر نفسك مسلما من عباد الله وتخضع كل افعالك ونواياك لمشيئته. لا تقل، بجهل، ان الاقتداء بالله تعالى متعذر ومستحيل. حقا، يتعذر تكرار ما خلقه الله بكل الدقائق والتفاصيل. ولكن اقتد به في كل الاعمال واسلك السبيل الذي هداك اليه. واليك صفات الله النيرة الوضاءة: الحياة (الحي القيوم) والعلم (العليم) والقدرة (القدير) والبصر (البصير) والسمع (السميع) والارادة والكلام والخلق (الخالق).

وقد وهب الخالق الانسان هذه الصفات الثماني ولكن ليس بالكمال المطلق الذي يتمتع به جل جلاله.

وهل يجوز ان نسمي انفسنا بالمسلمين اذا كنا نوجه القابليات التي وهبنا الله اياها، وان كانت شحيحة، في غير ما جاءت من اجله، واذا كنا نستخدمها ليس لوجه الله؟ يجب ان نعرف الكيفية التي نوجه بها افعالنا بالصفات الالهية الثماني العظام. لان الله بطبيعته لا يحتاج الى اوصافنا، فهذا امر يتطلبه عقلنا المحتاج الى وضوح تصورات الله في الصفات الثماني المذكورة. واذا كنت جاهلا بها لن تستطيع ان تتصور الله تعالى وتأخذ فكرة عنه. وطالما نعرف الله بقدر ما يتجلى لنا من مظاهر فلن يستطيع احد ان يعرفه بصورة نهائية. وحتى احكم الحكماء عاجزون عن ادراك افعاله، ناهيك عن ادراك كنه طبيعته. الله قدير على كل شيء، وقدراتنا محدودة. وليس بالامكان قياس اللامتناهي بالمتناهي. نحن نسعى الى تثبيت مفهوم الله في الاذهان ونكرر: قل هو الله احد، الله الصمد. الا ان مفهوم

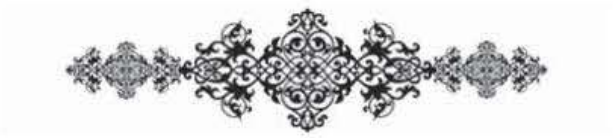

"احد" و"صمد" قاصر عن بلوغ جوهر الله تعالى، لان اي ظاهرة ممكنة في الواقع لا بد ان تمر بمقياس الواحد. وهو يطبق على كل مخلوقات الله، وقد ورد ذكره في الكتاب الذي يشير ايضا الى صفات الله الثابتة الثماني والى اسمائه الحسنى التسعة والتسعين التي تجسد صورته وافعاله الفريدة.

اما انا فاريد ان اتطرق الى اربع من هذه الصفات، وفي المقام الاول العلم والقدرة، وما تبقى هو جزء لا يتجزأ من جوهر هاتين الصفتين، وتكملة لهما وتوضيح . واشير هنا الى صفة اخرى من الصفات الست الباقية: الحياة (الحي القيوم).

نحن نقول: الله موجود، الله احد. وننعته وندركه بوصفه القدير العليم، اي قدرة العلم. ونفكر ونتأمل: هل تنطوي مفاهيم "الوجود" و"الوحدانية" و"القدرة" و"العلم" على قوة فعلية؟ لا ريب ان قدرة العلم قوة فعلية. فاينما تتواجد الحياة توجد الارادة، واينما يوجد العلم لا بد من الارادة. فالعلم بحد ذاته لا يعطينا شيئا. كل شئ في الدنيا يتحرك بمشيئة الله. الكلام من الخصائص الملازمة للارادة. وهل يستغني الكلام عن الحروف والاصوات؟ كلام الله هو الوحيد الذي يستغني عن الاصوات والحروف. وطالما هناك حاجة الى النطق والكلام، فهناك قدرة على سماع ما يقال ورؤية ما يرى، أليس كذلك؟ الله سميع بصير، وهو يسمع ويرى لا كما نسمع ونرى بالاذنين والعينين، وتلك هي ميزة التفوق الالهي، اي قدرة العلم. ومن صوره، جل جلاله، الخلق. فهو الخالق الباري. واذا اعتبرنا الخلق ابداعا متواصلا لا ينسلت من الديمومة ولا ينفصل عنها، كالعلم والقدرة، بل يبقى في خضوع واكراه فقد يفهم اننا نلمح الى العجز والتابعية. والتابعية لا تليق بالخالق. فالخلق يرسخ القدرة والاقتدار. ويستنتج من ذلك ان جميع صفات الله عز وجل تتوحد وتندمج بفضل العلم والقدرة. والعلم مكتمل كامل بلا حدود. والقدرة شاملة لا شائبه فيها. فالله على كل شئ قدير. والحكم على الصانع يأتي من مصنوعاته. ولا احد من الاحياء يستطيع ان يدرك بالعقل العمل الهائل الذي خلق كل ما نراه ونلمسه والقوة الجبارة التي جمعته في وحدة واحدة كاملة.

اذا كان العقل سيد البشر والقوة تخدمه في كل افعال الإنسان أفلا تخدم هاتان الصفتان الخالق جل جلاله. ولا بد ان نتقبل مفهومي العلم والقدرة في وحدة واحدة. فالله عليم قدير، والا فان احدهما تابع والآخر متبوع. وهذا ايضا يتعارض وتعاليم الله تعالى.

وعند ذاك لا تترابط صفات الله الثماني ولا تندمج في صورة واحدة، بل تنحل

الى صور مستقلة متباينة. كل تلك الصفات تنطلق من الخالق وحده، وهي بمجملها تجسد صورة الله الواحدة الفريدة. ومن الخطأ القول بأن توحيدها لتشكيل صورة قديرة جاء متعمدا مقصودا.

قوة الانسان تكمن في عقله ومعارفه. اما القدرة الالهية فتتجلى في العلم والرحمة. ومع ان الرحمة لا تعتبر من صفات الله الثماني الاساسية، الا انها نابعة من معاني اسمائه الحسنى التالية: الرحمن الرحيم الرؤوف الغفار الودود اللطيف الوكيل البار الوهاب المجيب. اسماء الله الحسنى هذه تؤكد استنتاجاتي. ثم ان التناسق المدهش في بناء الكون يؤكد منطق كتاباتي. فكل شئ في الدنيا خلق من اجل خدمة شئ آخر. الجمادات لا تشعر بالالم، وتقتات عليها المخلوقات الحية، والحيوانات تطيل عمر الكائنات العاقلة (البشر). والدواب غير مسؤولة في يوم القيامة، والانسان يتحلى بالعقل ويتحكم في كل الاشياء. وقد تجلت عدالة الخالق وحبه لبني آدم في كونه خلق الانسان قادرا على تحمل المسؤولية في يوم القيامة. وابدع صورة بشرية تختلف عن اشكال الديدان والطيور وسائر الدواب، ووهب الانسان قيافة افضل وجعله منتصبا يمشي على قدمين ووضع الرأس في موقع مرتفع ليرى ما حواليه ولا ينحني لتناول الطعام كما تفعل الماشية، ومنحه يدين تخدمان الرأس، ومنحه انفا ليتمتع بأريج العطور والزهور ومنحه عينين يرى بهما ما يأكله، ووضع لهما جفونا تحميهما من المخاطر واهدابا تقي الجفون من الاحتكاك وحواجب تقي العينين من العرق المتصبب من الجبين، ومنحه لسانا يمكّن البشر من التخاطب والتفاهم والعمل المشترك. أفليس ذلك دليلا على حب الخالق للانسان؟ واذا احبك شخص أفلست ملزما بمعاملته بالمثل؟

فكر وتأمل: الشمس تبخر المياه وتحولها الى غيوم يهطل منها مطر يبعث الحياة في البذور والاعشاب والزهور التي تسر الانظار وتفرح الفؤاد. وتنضج الثمار من كل شاكلة وطراز، وينضج قصب السكر وكل ما يوفر مستلزمات الحياة على وجه البسيطة. والانهار تصب في البحار والبحيرات، وتروي ظمأ الدواب والاطيار وتغدو مأوى للاسماك. الارض تهب الانسان القمح والقطن والقنب والثمار، وتنطوي على ثروات معدنية، والطيور تمنح الانسان الريش والزغب واللحوم والبيوض، والماشية تسقيه اللبن وتزوده بالجلود، والمياه تعطيه سمكا والسمك يعطيه البيوض، والنحل يزوده بالعسل والشمع، ودود القز يمنحه الحرير. كل من يخلق هذه الثروات لا يدعي ابدا ولا يقول "هذا مالي". كل شئ متوفر لخير الانسان. والمعامل والآلات التي صنعها العمل العسير تخدم الانسان وتنفعه وتفرحه.

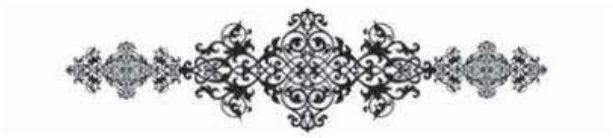

أفليس ذلك مظهرا لحب العلي القدير للانسان؟ أفليس من واجب الانسان ان يقابل الحب بالحب والمودة بالمودة؟

وكيلا تبيد البشرية، بسبب جشعها، اصناف الحيوانات ولا تلحق الضرر بالاجيال القادمة، جعل الله البخل البشري نفسه يحرص على الحيوان. الوحوش والطيور تعول على قوتها وعلى قوائمها المتينة واجنحتها السريعة، وتعثر على المخابئ والمكامن في اعماق المياه وتعتكف فوق الصخور العالية وتختبئ في مجاهل الغابات. كل الاحياء تسعى الى التكاثر والتناسل وتمتلك غريزة البقاء والعناية بالخَلَف والابناء. كل شئ خلق لا من اجل ان تتطور الحيوانات وتكتمل حتى تبلغ مستوى الانسان، بل من اجل ان تؤمن للانسان مصدرا غذائيا لا ينضب. ونرى في كل شئ مظهرا للطيبة والعدل.

نحن ننسى ان الطيبة والعدل شرطان من شروط الشريعة. وعلينا كمسلمين ان نسلك سبيل الله ونخلص له الدين. ولكن هل نسلك هذا السبيل على الدوام؟ الا تكفينا هذه الادلة الساطعة كالأجرام السماوية على عناية الله بالانسان؟

يعجبنا ان ننظر الى حسنات الآخرين. لكننا لا نكلف انفسنا بمزيد من العناية بالاقربين. أفليست تلك خطيئة؟

من لا يقف في وجه الشر والباطل لا يعتبر من المسلمين الحقيقيين، او هو مسلم قاصر.

اين الصراط المستقيم الذي هدانا اليه العلي العظيم؟ الكثيرون لا يعرفونه. لم اصادف مسلما تبنى قول الرسول: فكر في شؤون الله. ولم اصادف مسلما اتبع وصايا الاسلام: ان احببت الله يحبك. واحسن للناس ان الله يحب المحسنين. والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنان لهم ما يشاؤون عند ربهم.

وفي القرآن الكريم كثير من الآيات بهذا المعنى، لكن احدا منا لا يحاول التمعن في معانيها، وليست لدينا الرغبة ولا المعارف الكافية لادراك هذه الحقائق.

ان الايمان لا يظهر من تلقاء نفسه. فهو نتاج العدل والتقوى. لكن العدل والفضيلة لا يتحققان بالصلوات وحدهما ولا بالخضوع الاعمى. ولا موجب لإيراد الادلة والبراهين- فانت ترى المسلمين يصلون ويصومون، لكن هذا غير كاف.

العدل اصل الفضل. ومن العدل ينطلق مفهوم الضمير والنزاهة.

فالعادل لا بد وان يفكر ويسأل نفسه: "لماذا استحسن حسنات الآخرين ولا اسارع الى المشاركة فيها؟". أفليس ذلك دليلا على عدله ونزاهته؟ أفليس ذلك بداية الحسنات؟ ولكنه عندما يعتني بالناس لماذا لا يبدي نفس العناية بالخالق جل

جلاله؟

الطموح الى عمل الخير نابع من الاقتناع بالقليل. فلا تبددوا الاحساس بالعدل ولا تكفوا عن عمل المعروف. بدون العدل لا وجود للايمان والنزعة الانسانية. والعيب الواحد يولد مئة عيب، كما علمنا الشيخ عبد الله جار الله الصوفي.

لقد نشأ مفهوم العلي القدير في وعينا بوصفه العليم الرحيم العادل. واذا تواجدت دلائل العلم والرحمة والعدل في نفسك فانت ميال الى المعرفة وانت مسلم عن حق وحقيق، ومؤمن تتمتع بنزعة انسانية رفيعة. والمعروف ان النبل ينطوي على ثلاث خصال: الصدق وحسن النية والحكمة. الصدق يجسد العدل. وحسن النية يجسد الرحمة. والحكمة، كما هو معروف، احد اسماء العلم. وقد وهب الله الانسان هذه الخصال، ولكن بقدر اقل. وواجب الانسان ان يصل بها الى الكمال ويستخدمها للصالح العام ويتذكرها ويحافظ عليها في نفسه. ويمكن بلوغ هذا الهدف بالرغبة الصادقة والعمل الدؤوب. هذه السجايا الثلاث من خصال النبي (صلعم). ومن بعده يأتي الأئمة والاولياء والعلماء والمؤمنون الصالحون. وهي خصال تهدف الى خدمة الله تعالى ويبشر بها النبي (صلعم) ويتبناها الاولياء بحب، لكن حبهم هذا لا يكفي الا للعمل من اجل الآخرة. فقد نسوا افراح الدنيا او تناسوها ولم يلتفتوا اليها.

اما العلماء فهم يهتمون بالحياة الدنيا. احكام الاولياء والعلماء متعارضة متناقضة، حتى وان لم يبتعدوا كثيرا عن بعضهم البعض في المعتقدات، مع ان كلا الطرفين يمجدان تعاليم الله. ولكن كل جدال لا بد ان ينتهي بالرضوان، أليس كذلك؟

العلم والعقل، كطبيعة الانسان، لا يتحملان العنف ولا يسكتان عليه، وهما ينفران من الزيف، ويعلماننا الطيبة والاخلاص والفضائل، وتلك هي الرحمة بعينها.

لكنني اعتقد ان الاولياء والعلماء على السواء يبحثون عن الرضوان في الجدال من اجل الامجاد.

ولو اختارت البشرية من اجل الكمال الطريقة التي رسمها النساك والأئمة والاولياء فقط لعم الخراب. فمن يرعى الماشية ويوقف الاعداء ويخيط الثياب ويبذر القمح ويستخرج ثروات الارض؟

واذا تخلينا عن الخيرات التي وهبنا الله اياها أفلا نغدو قليلي الاحترام قليلي الرشد قليلي التشكر ونقترف بالتالي خطيئة لا تغفتر؟

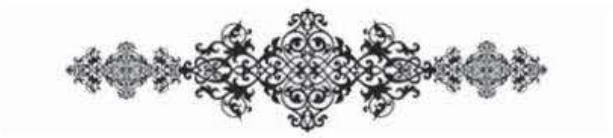

الذين يختارون هذا الطريق مهددون بالانقراض التام او الوقوع فريسة بأيدي الكفار، واضعفهم عزيمة سيحيدون عن السبيل المختار دون ان يبقى لهم اثر من الآثار.

واذا كان هذا الطريق مرسوما لنصف المسلمين يحق لنا ان نتساءل: هل توجد حقيقة نصفية؟ الحقيقة يجب ان تكون واحدة للجميع. وهل تكون الحقيقة اختيارية؟ والعدل اختياريا؟ في هذه الحالة تعدم الامة الحياة. لأن الحياة هي الحقيقة العليا. وبدون الحياة يتعذر الكمال.

لم يكن كل الائمة والاولياء يستهينون بخيرات الدنيا. فالمعروف ان ثلاثة من الصحابة، وهم عثمان رضى الله عنه وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص رضي الله عنهما، اشتهروا بثرواتهم.

ويعزى تقشف الاولياء الى عدم الثقة بالنفس والخوف من غوايات الدنيا، الامر الذي يضعف الايمان دون ريب. وربما هو ناجم عن رغبتهم في صرف انظار الناس عن الاكتناز بقدوة التقشف حتى يتخلى الناس، عندما يرون نسكهم واعتكافهم، عن الملذات الفتاكة والمقاصد الانانية ويختارون سبيل المودة وحب الخير. واذا كان الدافع الى ذلك هو حب الناس المتفاني فان ذلك غير كاف وان تضحياتهم لا مبرر لها وطريقهم محفوف بالمخاطر وغير صائب ولا قويم. فلا يبلغ الحقيقة الا المخلصون لدينهم الذين ارتقوا ذرى العلم ويمتلكون سلطة وجبروتا وبسالة منقطعة النظير ومعتقدا روحيا راسخا، وليس بالامكان تقريبا اجتماع كل هذه الخصال في انسان واحد، او ان المدعي بها نصاب لا يبارى، وفي الحيلة والخداع لا يجارى.

الطموح الى الامتياز والتعالي على الآخرين يفسد الطبيعة البشرية. فالجهول اذا اعلن عن تمسكه بالطريقة (الصوفية) انما يعترف بلا اخلاقيته.

المفكر والعالم كائن واحد، ولكن في سياق المعرفة يتجلى الفارق بينهما. العلم الظاهري المعروف في الدنيا يقدَم الينا بصيغة ارشادات ومواعظ. والمرشدون الذين حققوا اكبر النجاحات في مواعظهم يسمون بالعلماء.

لكل مخلوق سبب. ولعل خدام هذه التعاليم مندفعون بالتعطش الى اكتناه اسرار القدرة الألهية، الامر الذي لا يمنع على احد، ام انهم يمارسون هذا النوع من العلوم ارضاء لوجه الله وحبا به؟ وهل من اللائق الكلام عن هذا النوع من الحب طالما الانسان عاجز عن معرفة ذات الله؟

وما حب الله الا الحب النابع من الفهم الواضح للايمان اللامحدود ومن

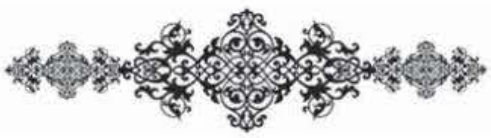

الشعور بالامتنان لله وفضله على الكائنات التي خلقها بحب ومودة ومنحها القدرة على المحبة والمشاطرة والمؤاساة.

لا يستحق لقب العالم بجدارة الا الساعون الى اكتناه ماهية الله وفقا لعقلهم والباحثون عن السبب الاول لجميع الظواهر والاشياء. فهم يتوخون الحقيقة والعدل والخير لصالح البشرية، وليس لديهم في الدنيا مسرات وملذات سوى العمل. ولولا هؤلاء المفكرون السائرون على الصراط المستقيم لحلت المصيبة بالارض قاطبة. هؤلاء العلماء الحقيقيون هم هيكل كل الابداعات البشرية، وعقولهم ترتب كل شئ على الارض. ونشاطهم يهدف الى توفير الرخاء الدنيوي، فالحياة الدنيا هي التربة الممهدة للآخرة .

ليس كل عالم حكيما، ولكن كل حكيم عالم.

الايمان التقليدي يكتسب بمواعظ علماء الدين، لكنه بفضل تنوير الحكماء يتحول الى ايمان حقيقي. ويسعى الى ذلك الحكماء الذين ادركوا المغزى الاسمى للاسلام. اما علماء الدنيا العلمانيون فلا يعرفون اصول الدين مع انهم يسعون الى الحقيقة وتمكنوا بينهم وبين انفسهم من اكتشاف اسرار الكون والوجود البشري. ولا يتقبلون من اصول الشريعة السبعة الا الله، ولا يستطيعون التفريق بين عباد الله واعدائه. ومع انهم ليسوا رعاة روحيين لنا، لكنهم جديرون باعترافنا، لان افضلكم عند الله اتقاكم وانفعكم للناس كما جاء في الحديث الشريف.

هؤلاء الأشخاص لا يذوقون طعم النوم والسكينة ولا يعرفون الملذات، انهم في بحث دائم عن الاكتشافات النافعة للبشرية. وقد اكتشفوا الكهرباء واخضعوا طاقات البرق للانسان وتعلموا الاتصال فيما بينهم من مسافات هائلة وارغموا النار والماء على القيام بعمل جليل لا تقوى عليه آلاف الناس. وهم جادون في كمال العقل البشري، ويعلموننا التفريق بين الخير والشر، بين الحق والباطل، ونحن مدينون لهم بالكثير دون ريب.

الا ان ملالي اليوم خصوم العلماء. مما يدل على جهالة رجال الدين او سوء نواياهم، لان الانسان ميال الى الشر بطبيعته كما يقال. والعديد من تلاميذهم حالما يحفظون بضعا من الصلوات والادعية بالعربية او الفارسية يتصورون بأنهم قادرون على المشاركة في المجادلات، ويتباهون بذلك فيعودون بالضرر على الناس بدلا من المنفعة ويحيدون بهم عن سواء السبيل بدعوات طنانة ونصائح فارغة. بعضهم يسئ ليس عن سوء نية، بل انطلاقا من وازع طبيعي. ويسرنا ان نرى احدا منهم ينصت الى صوت الحق ويعود الى رحاب الضمير والنزاهة. فهل ينعت بالنزيه

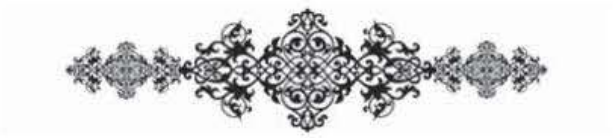

ذلك الذي يعيق الحقيقة؟ ان الغرور، وخصوصا اذا لم يكن هناك ما يبرره، يفسد الانسان. اذا كانت الحقيقة هي الله فيجب عدم مقاومتها، بل يجب فهمها والتحكم الى العقل والعدل. ان الضلال يقود الى الانفصام عن الدين.

عندما قال الرسول صلى الله عليه وسلم انه سيأتي يوم طوله عام، سأله الفقهاء: كم مرة ستقام الصلاة في ذلك اليوم؟ ورد عليهم: سيعرف الجواب علماء ذاك الزمان. فهل اراد النبي (صلعم) ان يلمح بهذه الكلمات الى ان قوانين الدين ستتغير وتتجدد بمرور الزمن؟

طرق التدريس في المدارس الدينية الآن عتيقة ميئوس منها، ولا نفع فيها، بل هي ضارة ولذا افتتحت في تركيا مؤسسات تعليمية جديدة تدرس فيها الشؤون العسكرية والعلوم الاخرى الى جانب الفقه والدين. فتياننا يضيعون سنين عديدة في الحفظ الفارغ عن ظهر قلب في المدارس الدينية، ويتخرجون منها جهلة اميين غير راشدين وغير قادرين على العمل، ويظلون يعيشون بالتضليل والاكاذيب. ولا يعود تعليم الملالي بالنفع على احد.

جمال الخليقة يضفي صفة النبل على العقل البشري. ويصادف ان يفقد المرء خصاله البشرية ويتحول الى وحش كاسر بسبب العوز والفاقة. ان عدم الرغبة في امتلاك ناصية العلوم العالمية دليل على الجهالة، وهو امر يستهجنه القرآن الكريم.

ثمة فارق كبير بين الثروة وتكديس المال من اجل التفوق والعلو وبين الثروة التي تكدس من اجل توفير الفرصة لمعونة المحتاجين ومن اجل الاعتماد على النفس.

نحن لا نسعى الى كسب المعرفة من اجل الثروة. بالعكس، نحن نستخدم الثروة في سبيل امتلاك ناصية المعرفة. والفن هو الثروة الحقيقية التي لا تنضب. فإن تعلم الفن من انبل الاعمال. ويتوجب على المعارف ان تخدم العدل وتستجيب لمتطلبات القانون الالهي. والانسان ملزم بعمل المعروف، فلا يكتفي باستحسان الاحسان، بل يجب ان يمارسه بنفسه دون كلل.

في معرض الكلام عن الملالي اريد ان احذركم خصوصا ممن يسمون بالايشانيين، فان تعاليمهم زائفة مهلكة. الكثيرون منهم جهلة لا علم لهم بقوانين الشريعة الحقة، وهم يختارون طريق الفقه ويحاولون وعظ الآخرين رغم شحة معارفهم. ان تعاليم غواة البشر هؤلاء ضارة حتى بمدعي الدين. وهم يتخذون الحمقى سندا لهم، وقولهم كذب، ولا دليل على تضلعهم في علوم الدين سوى العمامة والمسبحة.

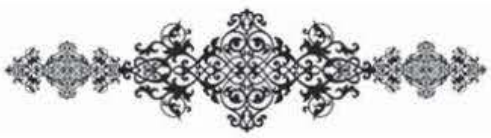

فاعلموا يا ابنائي! ان سبيل الله لا نهاية له. ولا احد بقادر على اجتيازه. ومن عزم على سلوكه هو المسلم الحق. اذا كان هدفك النهائي هو الاثراء فليس ذلك سبيل الله، بل هو دليل على محدوديتك. ما اغرب هذا الجشع الذي يريد الاستئثار بثروات الدنيا كلها. اذا كنت تنوي ان تقتسم نقودك وماشيتك ومعارفك وسائر خيراتك مع الآخرين فان ذلك هو سبيل الله، السبيل الوحيد الذي لا حد له ولا آخر. والذين يختارونه هم عباد الله الصالحون، الآملون في مقربة الله جل وعلا. فأي امل يعلق على السبل الاخرى؟

قدرات ونوايا بعض الناس متجهة صوب تحسين المظهر الخارجي. فهم يعتنون بثيابهم وهندامهم ومشيتهم معتبرين ذلك من اسمى المنجزات. ويحاولون ان يعرضوا انفسهم كما في اسواق البيع والشراء، ويثيرون حسد الحمقى الذين لا عقل لهم. عندما ينظر اليهم الآخرون يتحسر بعضهم ويقتله الحسد، ويجهد البعض الآخر نفسه في محاكاتهم وتقليدهم. فما نفع كل هذه الامور؟ ما اكثر الجهود المهدورة من اجل كسب اعجاب الآخرين بالمظهر الخارجي؟ مكارم الانسان في المخبر وليس في المظهر، في صفاء نواياه وطهارة نفسه غير المزورة التي يعرفنا الله من خلالها. فهل يزداد عقل اولئك المعجبين بالمرايا؟ عقل الانسان يكتمل بحبه اللانهائي اللامحدود للخير.

خلق الله الكون بابداعه وكماله وخلق الانسان ليتمكن من النمو ومواصلة النوع البشري. الواجب المقدس لكل منا ان يكثر عدد اصدقائه. وهذا يتوقف على طيبة القلب والجاذبية والميل الى الآخرين، الامر الذي يقابل بشعور مماثل، او على الاقل لا ترغب في الشر لغيرك ولا تصعر خدك للناس ولا تتبختر بالاقوال والافعال.

فهناك سبل اخرى للتسامي الروحي.

اولا- القدرة على صيانة الكرامة الانسانية، حتى في الشدائد والمحن، تمنح الانسان صفة النبل.

ثانيا- التباهي والتفاخر بالخصال الشخصية يلحق الضرر بصاحبه.

ثالثا- سوء النية واهانة كرامة الآخرين يثيران العداوة بالمقابل.

التبجح هو سبب الرغبة في التميز على الآخرين. وهو يثير الحسد، والحسد يثير المزيد من الحسد.

واذا تخلص الانسان من هذه العيوب يحظى بالدعة والرضوان. وفي النفس الراضية المطمئنة يولد الطموح.

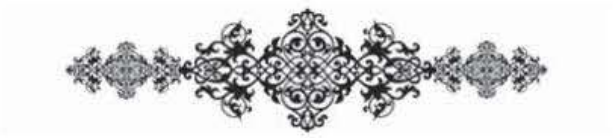

ثمة ثلاثة اشياء يمكنها ان تحط من قيمة النوع البشري باجمعه. ويجب تفاديها، وهي : الجهالة والكسل والسيئات.

والجهالة هي غياب المعارف التي لا يمكن بلوغ شئ بدونها. غياب المعارف يجعل الانسان كالبهيمة.

والكسل من ألد اعداء الفن. انعدام الموهبة وضعف العزيمة وعدم الحياء والفاقة - كل ذلك من فعل الكسل.

والسيئات عدو البشرية. فالانسان عندما يسئ الى غيره يبتعد عن البشر ويغدو كالوحش الكاسر.

الدواء الشافي من هذه العلل والعيوب هو حب البشر. والعمل من اجل الجميع وقوة العزيمة والعدل والمعارف العميقة الشاملة. فوجّه معارفك في السبيل الذي هداك اليه الله، لان الله خلق الكون الكامل المتناسق بجهود هائلة وآلام ومعاناة لا مجال بينها للكسل والتواني. ويجب عليك انت ايضا ان تؤدي عملك بالجهد الحثيث والنوايا الطيبة. كل ما خلقه الله له مهمة ورسالة، ويجب ان تكرس ثمار عملك انت ايضا لما ينفع الناس. والا لا ثمرة لعملك ولا قيمة لايمانك.

ومعروف ان مخلوقات الله لم تظهر للوجود بدون صعوبات، وما من شئ خلق بدون وظيفة او رسالة. كل شئ له غايته وسببه. والانسان الميال الى المعرفة يجب ان يتذكر ان كل عمل لا بد ان ينتهي الى غاية.

وقد اوصانا النبي صلى الله عليه وسلم ان نتوخى القصد والغاية قبل الشروع بالعمل. وقال "انما الاعمال بالنيات". (حديث شريف رواه البخاري ومسلم).

وها نحن ننوي التوضوء واقامة الصلاة والامساك والصوم. ولكن أليس من الكبائر ان نهتم بمراعاة الفرائض ظاهريا فقط؟ اذا كنت طاهر النفس خالص النية فان اداء الفرائض يعكس حياتك الروحية، والمظهر الخارجي المنتظم يزين ايمانك ويحسنه. أليس ذلك ما جعل الحكماء يؤكدون ان الايمان واحد يميزه الصبر والتسامح، وهو يخفت ويذوي بدون ضبط النفس، بل وربما يحكم عليه بالهلاك؟ قال الحكماء ذلك كيلا ينسى الجهلة الذين يفكرون بالفرائض ظاهريا الرسالة الرئيسية التي هي الايمان.

ولدي ما يدفعني للتفكير بانهم واثقون ان اداء الفرائض الالزامية كاف لاعتبارهم مسلمين. والامر ليس كذلك طبعا. فالفرائض هي حراس الايمان فقط. فما نفع الحارس الذي يسهر فقط دون ان يهتم بصيانة وسلامة ما يحرسه؟ وماذا سيصيب الدين اذا غابت اليقظة؟ أليس الهدف الاول هو صيانته والحفاظ على نقاوته؟

يا ايها العاجزون عن فهم مغزى الفرائض اسمعوا وعوا. اهم تلك الفرائض الصلاة. وقبل الشروع بها يجب ان تتوضأوا . والوضوء سيأتي بعد الغسل. تذكروا ذلك ولا تنسوه. وينتهي الوضوء بمسح القدمين بيدين بليلتين. بعض هذه الحركات يتميز بطابع رمزي.

الوضوء بعد الغسل، حيث تنظف اجزاء البدن غير المرئية للآخرين، فهذا بالطبع لا يعنى به الآخرون. لكنكم بهذه الافعال تعرضون للناس ان نفوسكم بريئة طاهرة وانكم تجعلون مظهركم يطابق مخبركم. وبعد الطهارة التامة والاطمئنان تشرعون بالصلاة.

والصلاة هي الابتهال والدعاء.

ويعني لمس الرقبة والقدمين بخفة باصابع مبللة انها نظيفة مغسولة.

واثناء الشروع بالصلاة تلمسون الآذان بالاصابع ، ويعني ذلك انكم لا تجرأون امام الله على رفع اليدين اعلى من هذا المستوى، وتلك الحركة تعبر عن اعترافكم بأن الله اكبر وتعبر عن ابتهالكم اليه بأن يمد العون لكم ولا يترككم تغرقون في مشاغل الدنيا.

وعندما تطأطئون رؤوسكم وتضعون ايديكم على صدوركم تثبتون انكم خاشعين لا كالعبيد امام الاسياد، ولا كالعامة امام الملك، بل تعبرون عن اعترافكم كمخلوقات ضعيفة تافهة بعدالة الله وقدرته جل جلاله.

وعندما تتيممون شطر الكعبة، قبلة المسلمين، تعبرون عن الامل بأن الله سيسمع دعاءكم ويتقبل صلواتكم.

والصلاة تبدأ بسورة الفاتحة وتستغرق وقتا ثمينا مفعما بالمعاني.

والركوع دليل على ان المؤمن ماثل امام وجه الله.

وتعني السجدة الاولى ان الانسان خلق من الطين، من التراب، وفي السجدة الثانية يعود اليه. والتطلع الى السماء يعني الابتهال والامل بالنشور بعد الموت.

وتختتمون الصلاة بجلوس تتلون فيه التحيات لله والصلوات الطيبات. وتقولون السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

فما اكثر العبر والدروس في هذا القول.

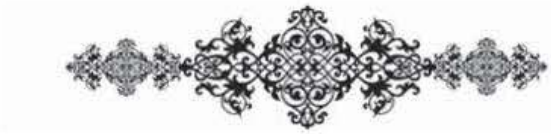

# القول التاسع والثلاثون

كان اسلافنا دون ريب ادنى مستوى من معاصرينا من حيث الثقافة والتأدب والقيافة والاناقة واللياقة. لكنهم كانوا يتحلون بخصلتين لا تتوفران لنا الآن.

وقد فرطنا بهما وضيعناهما اثناء تخلصنا من العيوب التي خلفها لنا السلف. ولو كنا نتحلى بقوة العزيمة ولو بذلنا الجهود الرامية الى كسب خصال جديدة من اجل الحفاظ على الخصال القديمة لربما وقفنا على قدم المساواة مع الامم الاخرى. وطالما العزيمة معدومة فالجديد المكتسب يقوي في نفوسنا الصفات الشيطانية اكثر من السجايا الانسانية. وذلك من اخطر اسباب التفريط بالكرامة الوطنية والخصال القومية.

فعن اية سجايا نتكلم ؟ في قديم الزمان كان بين الناس عمدات وشيوخ يبتون في النزاعات ويحلون الخلافات ويوجهون حياة الامة. وكان العامة يمارسون شؤونهم على اية حال. وما كان من عاداتهم التشكيك في قرارات العمدات والشيوخ ولا تفضيل احدهم على سواه. يقول المثل: اذا سار القوم كل على هواه لن يتعايشوا حتى في اوسع الرحاب، واذا كان لهم عمدة لن يحترقوا حتى في اشد النيران. وانطلاقا من هذه الحقيقة كان الناس يقدمون القرابين للارواح المقدسة ويبتهلون اليها ويسلمون مقاليد الحكم لمن يختارونه بالاجماع ويسعون الى تأييده ونصرته في كل شيء متغاضين عن عيوبه وممجدين مكارمه. كانوا يقدمون له آيات الاحترام وينصتون الى اقواله ويطيعونه دون قيد او شرط، وعند ذاك ما كان المتنفذون يتجاوزون حدود المعقول. فكيف لا يسهرون على مصلحة الرعية وهم اخوة جميعا والملك مشترك بينهم؟

والشيء الثاني ان الناس كانت تعتز بالوحدة وتحافظ عليها كحدقة العين. فما ان يهيب بهم احد لنصرة الآخرين ويذكرهم باسماء الجدود حتى يهب الجميع لنصرته متناسين كل الخلافات والاحقاد مقدمين على التنازلات مقدّمين التضحيات. وكانوا يقولون: من لا يسامح الاقربين يهانَ من الابعدين. الاخوة يتشاجرون دون ان يتنكروا لبعضهم البعض. اذا غاص ستة في الحزازات فقدوا ما يملكون، واذا اتفق اربعة في الرأي نزلت عليهم رحمة الله. من يبحث عن السبيل القويم يعثر على الكنوز ومن ينشد الخلافات يعثر على المصائب، من يزرع الريح يحصد العاصفة. فأين روح الوئام النبيلة هذه الآن؟ واين الذود عن الشرف والكرامة؟

كان صمود الناس وضميرهم وبسالتهم ضمانة لتلك الخصال. اما نحن فقد حرمنا منها.

فالصداقة عند معاصرينا غدر وحنث وليس حبا ومودة.

والعداوة ليست بسبب نصرة الحق، بل بسبب فشل العيش في وئام.

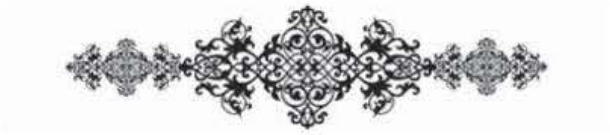

# القول الاربعون

يا من تستحقون التقدير والاحترام، اريد ان اسألكم: كيف حصل اننا لا نذكر الموتى بسوء، لكننا لا نجد بين الاحياء من يتمتعون بالعز والاكرام؟

لماذا يعيش الشيوخ مع الشبان في وئام، بينما يتعادون فيما بينهم رغم تضاؤل عددهم مع مر الايام؟

وما ان يرتحل احد الى بلاد الغربة حتى يشرع الناس هنا جميعا في حبه وكأنه ابنهم العزيز. ولكن ما ان يعود حتى نحمله على الهرب منا مجددا، لماذا؟

لماذا يتزلف الناس لرجل طيب من قبيلة اخرى ويمتدحون خصاله ومناقبه، ولا يلتفتون في قبيلتهم الى الذين يفوقون الغرباء في الحكمة ونبل المحتد؟

في ديار الغير نمتدح قريتنا، وعندما نعود نكيل الثناء حتى لعيوب قرية الغير. فلماذا؟

لماذا يعتني الآباء بالابناء ويعاملونهم برقة وحنان في الصغر ويعاملونهم ببرود في الكبر؟

لماذا يصعب جمع شمل الاهل والاقرباء في الافراح والاتراح وفي الاحداث الجديرة باللقاء، وحالما تفوح رائحة السرقات او النهب والسلب تراهم يتقاطرون من كل حدب وصوب؟

لماذا يزعل الاهل عليك عندما يفوز حصانك في الرهان؟

في قديم الزمان كان الناس يفهمون انه اذا ساعدهم احد مرة في بلوغ المكان الذي يقصدون فانهم يتذكرون تلك المساعدة بامتنان مدى العمر. اما الآن فما اسرع ما ينسى الناس عمل المعروف. لماذا؟

لماذا لا يخجل ابن البيك من السرقة عندما يحيق به الفقر، بينما يعتبر الخدمة عند بيك آخر عارا وشنارا؟

لماذا لا يتعايش شخصان طيبان في عشيرة واحدة، بينما يغدو الدنيئان صديقين من كل بد؟

الشخص الذي تعزه وتهديه حصانك لماذا يشيح بوجهه عنك حالما يستلم مهرا يافعا من عدوك؟

لماذا يقصر المرء في تقدير صديقه الذي يعيش معه في وئام بينما يبدي استعداده للتضحية بالنفس في سبيل عدو لبى له طلبا ذات مرة؟

لماذا لا يتمنى الكثيرون الخير للاصدقاء، واذا حالف الحظ احد صديقين فانهما يغدوان عدوين لدودين؟

لماذا يبحث البعض عن انسان يزودهم بنصيحة حكيمة بينما يتحاشون من يعرف تفاصيل عملهم ودقائقه؟

لماذا يتصرف البعض في ضيافة الآخرين وكأنما استصحب معه كل ماشيته، وعندما يستضيف الآخرين في داره يتظاهر بأنه اقتاد بعيدا كل قطعانه؟

يبحث الناس عن الاستقرار وحالما يعم بينهم يشعرون بالملل، لماذا؟

لماذا يتحكم الشطار الماكرون في رقاب الناس؟ ولماذا ينتشر الفقر بين العامة؟

لماذا تتعنت الزوجات الاصغر؟ ومن اين للاشرار بالشجاعة؟ ولماذا يهتاج الفقراء احيانا؟

لماذا يقال عن الذين يعيشون بدعة وبضبط نفس انهم ضعيفو الارادة، ويعتبر المستهترون والمتبجحون والمشاكسون من الشجعان؟

لماذا لا ينصت الكازاخيون الى قول الحق ولا يجدون وقتا له، لكنهم يقبلون على سماع النميمة والوشايات القذرة ولا ينصرفون الا بعد سماعها حتى النهاية، ولو انقلبت الدنيا؟

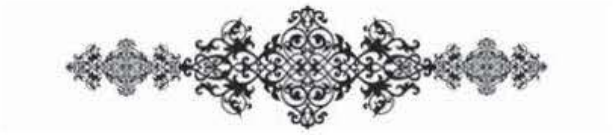

# القول الواحد والاربعون

من ينوي تعليم الكازاخي واصلاحه يجب ان يتحلى بميزتين.

اولا، يجب ان يمتلك سلطة كبيرة ويتمتع بنفوذ هائل، حتى يرهب الكبار وينتزع منهم الصغار ويحيلهم الى التعليم موجها بعضهم على طريق من طرق المعرفة وبعضهم الآخر على طريق آخر، ويرغم الوالدين على تسديد نفقات ابنائهم. ويكفي تعليم البنات اصول الدين حتى يكونن على الاقل قويات في الاسلام. ويمكن في هذه الحال الامل بأن جيل الشباب سيسلك السبيل القويم عندما يشيخ الوالدون ويعتزلون العمل.

ثانيا، يجب ان يمتلك ثروة طائلة بغية ترغيب الوالدين في المال وانتزاع الاطفال منهم على هذه الصورة وارسالهم الى المدرسة كما ورد اعلاه.

ولا احد يمتلك صفة قادرة على ترهيب الناس اليوم. ولا احد يمتلك ثروة تكفي لترغيب جميع الوالدين.

ولا يمكن اقناع الكازاخي بشئ دون ترهيبه او ترغيبه. فالجهالة التي ورثها عن ابويه وتشرّب بها مع لبن امه تسربت عبر اللحم حتى بلغت نخاع العظام وقتلت كل ما هو انساني فيه. ولا يخطر على بال الكازاخيين شئ اكبر قيمة مما يسري بينهم من تصنع وتكلف وتدليعات وتلميحات ما انزل الله من سلطان. انهم يحاولون ان يفكروا ولكن لا وقت لديهم للتركيز على الافكار. واذا تكلمت اليهم وجدتهم عاجزين عن الانتباه اليك، عيونهم تتراقص وافكارهم غائمة هائمة. فكيف سنعيش؟ وما العمل؟

# القول الثانية والاربعون

البطر والتكاسل من اسباب ولع الناس بالسيئات. فلو كان المرء يفلح الارض او يمارس التجارة فهل يستطيع ان يعيش حياة البطر والتكاسل؟ انه يتجول بين القرى على ظهر حصان استعاره من الغير، ويعيش بالمجان ويبث الاشاعات والاراجيف ويؤلب الآخرين بالمكر والغدر والخديعة او ينساق نفسه وراء المحرضين ويتسكع دون عمل ودون نفع. من يسعى الى الرخاء ومن تعود على العيش بالكد والكدح يعتبر حياة من هذا النوع اهانة واذلالا. فهل يترك عمله ليتسكع متجولا هائما دون هدف؟

ومن ينشأ لديه قطيع وان كان صغيرا لا يقنع به ولا يحرص على ما يملك، بل يمضي للبحث عن الملذات تاركا امر رعاية القطيع للرعاة والاطفال حتى يقع فريسة للصوص او الوحوش ويهلك في سوء الطقس. وهو يتحمل هذه الخسارة، لكنه يعجز عن الامتناع عن المشاركة في المؤامرات السرية والنميمة والوشايات والنزاعات التافهة. ورغبة منه في كسب منزلة ووزن في المجتمع يلزم نفسه بالمشاركة في كل الحزازات الشريرة الدنيئة والتقولات القذرة والمهاترات الرذيلة. والذين جمعوا ثروة مقبولة يتركون اموالهم في عهدة الآخرين ويتحولون الى حياة البطر والكسل والملذات.

الناس الآن لا يقدرون العقل الرفيع ولا احترام الجميع ولا الثروة، فالذي يحظى بالاحترام والتقدير اليوم هو تحبير الشكاوى والتفنن في التحايل والتضليل. والشاطر في هذا المجال، مهما كان فقيرا او يتيما، يحظى بالمنزلة الرفيعة في كل مكان وباللقمة الدسمة والحصان المكتنز. ويسهل على هذا النصاب ان يتزلف الى الوجيه الساذج معلنا برياء: "انا تحت امرك. مستعد لكل تضحية". وهذا وحده يكفي للحصول على المأكل والملبس والحصان الجيد واحترام الجميع دون اي جهد يذكر.

ولا يفكر الوجيه بالنفقات التي يصرفها ولا بالاطمئنان الذي يضيعه. وقبل ان يكلم سائر الناس يستأنس برأي وصولي مكار يتزلف اليه ويسير امامه على اطراف الاصابع خشية التفريط بثقة الوجيه وخوفا من ظهور "مستشارين" جدد عند صاحب السلطة والجاه. ويقوله له مسترضيا: "سامحك الله،هل يعقل اننا، انا واياك، لم يخطر ببالنا مثل هذا الشيء البسيط؟". ويشرع بعرض الاحابيل

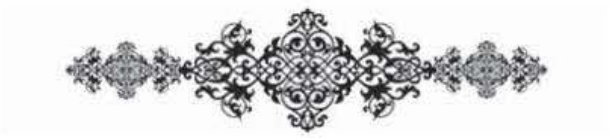

الدنيئة الواحدة تلو الاخرى، ويوحي للوجيه الارتياب بالاخرين. وفي اخر المطاف يفقد الوجيه ثقة الناس. واذا اعترض رجل فطين على الوجيه تجد الوصولي يقول له حالا: "الم اقل لك ان كل تلك الدسائس من تدبيره؟". وعند ذاك يحكم السيطرة على الوجيه الساذج بالكامل.

ذلك ما يضيع الناس فيه اليوم قدرات عقولهم ورغبات نفوسهم. ذلك ما يعتاشون عليه.

# القول الثالث والاربعون

وهبت الطبيعة الانسان جسدا وروحا. ولا بد من معرفة خصائص الجسد والروح الناشئة بالميلاد وخصائصهما المكتسبة بالعمل.

الاكل والشرب والنوم حاجات لإرادية. والرغبة في الرؤية والاطلاع ناجمة عن الغريزة اللاإرادية، لكن الذكاء والمعرفة من مكتسبات العمل البشري. والانسان عندما يسمع بالاذنين ويرى بالعينين ويلمس باليدين ويتذوق باللسان ويتشمم بالانف يحصل على فكرة وتصور عن العالم الخارجي.

الاحساسات المستحصلة بالحواس الخمس المذكورة اعلاه، سواء كانت مقبولة او منفرة، تتواجد في الذاكرة ضمن سنة مقررة وتخلق صورة معينة.

ان تلقّي الانطباع عن الشئ الجيد والنفور من الشئ السيئ هما من قدرات الانسان الطبيعية. وهذه القدرة ضعيفة جدا في بادئ الامر. لكن الانسان يطورها ويقويها. وهي تخبو وتمحي او تبقى في طورها الجنيني لا تصلح لشئ اذا لم تتلق الاهتمام والتطوير اللازم.

والذي يسمع ويرى الكثير مغترفا المعارف من الخارج، انما يمتلك الكثير. فهو قادر على التفكير الواعي وعلى التمييز بين النافع والضار. والانسان القادر على تحليل الاحداث والواقع يعتبر من الاذكياء.

والجاهل العاجز عن التفكير والذي لم يتعلم العمل، انما يحاول القاء تبعة بلاهتة على الخالق عز وجل. ويقول: "ما العمل، اذا كان الله حرمني من العقل؟"، و"خلقنا الله غير متساوين".

فهل امره الله بالا ينصت ولا يبصر ولا يتذكر ما يسمع وما يرى؟ وهل قال له: كل واشرب واسرح وامرح وتبجح وتحيون حتى تفقد جميع كنوز الروح؟

ويقول آخرون: "ربما كان الذكاء امرا مكتسبا بالفعل، لكن الطبيعة تمنح الانسان الطموح والقدرات والمواهب. والذي تمنحه الطبيعة المواهب يكتسب الذكاء ايضا. اما عديمو المواهب فيبقون بلهاء". هذا غير صحيح.

الطموح موجود عند الاطفال ايضا. ذلك امر لا جدال فيه. وقد قلنا ان قدرات الانسان ضعيفة جدا في البداية، وتحتاج الى مزيد من التنمية والتطوير. حتى الصنعة التي يمارسها المرء بشغف تغدو من يوم لآخر اكثر تطورا وكمالا. واذا لم تبد رعاية بالمهارات المكتسبة يمكن ان تفقدها دون ان تلاحظ بنفسك التغير الذي

يطرأ عليك. فاذا تركتك المهارة والحذاقة فهل يبلغانك سلفا انهما عازمان على تركك؟ ومحاولة استعادتهما تحتاج الى جهود اكبر مما سبق.

ان المواهب والقدرات الروحية متنوعة للغاية ومتعددة الجوانب لدرجة يتعذر شرحها هنا. فان قوة الروح قادرة على الاحتفاظ بالمهارات المكتسبة امدا طويلا، لكنها اذا لم تتلق الاهتمام اللازم تفقد قيمتها، ويمكن ان تنضب بمر الزمن القوة التي تحتفظ بتلك المهارات. وتتعذر استعادتها في تلك الحال.

تتميز قوة الروح بثلاث خصائص يجب تقديرها والحفاظ عليها، لأن الانسان بدونها يتحول الى بهيمة.

واولها تسمى "العنصر المتحرك"، فما هو يا ترى؟ هذه الخاصية تساعد ليس فقط على ادراك ما يرى ويسمع، بل تدفع الانسان سريعا للتفكير بمنابع الاشياء من بعضها البعض والجهة التي تجري فيها. ولا تغنى المطالعة الكثيرة عن هذه الخاصية، فالمطالعة بغيابها لا تثمر.

واذا لم تفعل اللازم في الوقت المناسب ولم تفكر او تقل ما تريد في وقته وتأخرت في كل شئ ستبقى طول عمرك آسفا تكرر بمرارة: واأسفاه، كان ينبغي ان افعل كذا واتصرف هكذا.

والخاصية الثانية تسمى "جاذبية المتجانسات". فعندما تعرف شيئا جديدا عليك، تفكر وتقارنه بأشياء مماثلة. وتبحث عن أوجه التشابه، هل هي شاملة؟ ام انها في بعض الجوانب فقط؟ ولن يقر لك قرار ما لم تكشف عن سبب التشابه وتسأل من العارفين وتتأكد من كل توقعاتك وتخميناتك.

والخاصية الثالثة تسمى "انطباعات الفؤاد". فاذا استطعت ان تصون فؤادك من تقلبات العيوب الاربعة، واعني الغرور والانانية والطيش والتهاون، فان الاحساسات الخارجية تنطبع بوضوح في صفاء قلبك ونقاوته. وتعمل هذه الانطباعات على تغذية عقلك وتحتفظ بها ذاكرتك امدا طويلا. واذا لم تصن صفاء فؤادك تخبو مرآة الروح وتتعكر، وتلوح كل الاشياء فيها معتكرة كالحة او مشوهة. وتنشأ لديك مفاهيم خاطئة عن كل شئ في الدنيا.

كل ما ستحصل بالعمل خارجك وحواليك يسمى بالمال او الثروة. ويصعب على المرء ان يحافظ على ماله اذا كان جاهلا بكل تفاصيل ودقائق تسيير الاستثمار. وكذلك يصعب الحفاظ على الثروة الروحية المكتسبة، على العقل، على المعارف التي يمكن ان تنقلب ايضا الى ضرر بالغ. واذا كنت جاهلا بذلك وضيعت شعورك باليقظة، فيمكن بسهولة ان تضيع ما كسبت.

لكل شئ في الدنيا حده ومداه. وللطيبات حدها ومعيارها. ومن اعظم الامور ان يعرف الانسان معيار الاشياء، ولا يتجاوز الحدود. اجادة التفكير تستحق الثناء، لكن البعض يغالون ويفرطون ويتخبطون في الافكار فيجافون العقل السليم.

ولا بد من معرفة الحدود وعدم الافراط في الاكل والشراب وارتداء الثياب واللهو والثراء والسعي الى السلطة، بل وحتى في ابداء الحذر والدهاء الرامي الى عدم الوقوع في احابيل التضليل. كل ما يتجاوز الحدود ويزيد على المطلوب شر مستطير.

قال حكماء الزمان: نجد الشر في ما نسعى اليه بدأب وعناد. وليكن في علمك ان خاصتي القوة الروحية، "جاذبية المتجانسات" و"العنصر المتحرك"، تنطويان على كل خيرات الدنيا وشرورها. التسلط والانانية والحقد والزيف-ما يحط من كرامة الانسان، يبدأ من هاتين الحقيقتين. ولا بد من المهارة في توجيه هذه القوة صوب استكمال الحسنات وتجويد الخصال الطيبة والنافعة، ولا بد من قمع السيئات في مهدها.

العقل يفرق بين النافع والمضر، ولكن حتى قوة العقل لا تذلل هذه الشرور. ولا يقوى عليها الا الذي يجمع في نفسه بين جبروت العقل وقوة الارادة. والذي يستطيع ان يوفق بين العقل والارادة في نفسه كالجواد السباق قادر على تذليل كل المسافات.

واذا لم تكن تلك الخصال متطورة، او اذا وجد بعضها وغاب البعض الآخر فان القوة الروحية تحملك كحصان جامح غير مروض يرميك على الصخور تارة وفي المياه تارة اخرى، ويرميك في الهاوية. فانت مسلوب الارادة. محمول لا تعرف الطريق، اذيال ردائك متهدلة مسدلة، وعيناك تصبوان الى السماء...ولن تغسل عارك حتى الممات.

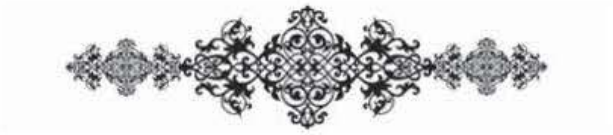

# القول الرابع والاربعون

اتفه الناس من لا طموحات له. لكن الطموحات اشكال وانواع. والطموحون متباينون من حيث القدرات والمواهب وقوة الارادة. وهم جميعا، موهوبون وغير موهوبين، لا يستنكفون من تلقي الثناء والمديح، بل ينتظرون الثناء والمديح سواء كان عن استحقاق ام بغير استحقاق.

الناس يعاشرون امثالهم ويفاتحونهم في اعز مقاصدهم ونواياهم. ويتوقون الى الثناء والمديح ممن يعيشون معهم او يعرفونهم اكثر من الغرباء والأبعدين.

بعض الناس يتوق الى الجاه وبعضهم الآخر الى الثروة، ولا فرق ان كان بالبخل والتقتير ام بالحيلة والتدبير. "لا خطيئة لمن جمع المال" و"محيا الغنى منير وضاء". هكذا يقولون، ويعرفون ان احدا لن يلومهم على ذلك. وهم يرون في المال كرامة وجاها لا مثيل لهما. ويبدو ان الامر كذلك بالفعل اذا حكمنا عليه من اخلاقياتهم المشوهة. ولكن اذا نظرنا اليه من الناحية الانسانية وجدناه احد ابشع العيوب.

البعض ينشدون شهرة الشجعان المغاوير والاولياء الصالحين والوجهاء المرموقين، والبعض الآخر لا يستنكفون من نعوت الشطار الماكرين العارفين بكل الامور، ويتباهون بالصيت السيئ ساعين الى الاستفادة منه.

الكل يطمحون ويسعون الى القراءة، ولكن ليس على صفحات الكتب، بل على وجوه الناس. يتفرسون في الوجوه وكأنهم يجسون نبض القلب ويقولون: "هيه ... اليوم زادت قيمة هذه البضاعة على تلك ... واليوم يمكن ان نكسب المزيد".

يقال ان استيعاب العلوم من بطون الكتب يتطلب في المقام الاول تطهير النفس من الأدران وتنقية الافكار من الشوائب، ومن ثم الإنكباب على مطالعة الكتب.

اذا كنت تفضل القراءة على وجوه الناس واصل عملك ولا تطهر نفسك، فلا احد يعلم بما تنطوي عليه. وكلما ازدادت طياتها وتعاريجها، كما يقال، ازدادت متانة النعيم والملذات!

فكيف نعرف حقيقة ما يتعلمه البعض والى مَ يطمحون؟

# القول الخامس والاربعون

الدليل على وجود الله الصمد هو ان البشر طوال آلاف السنين يتحدثون عنه بمختلف اللغات. ومهما بلغ عدد الديانات فالجميع يرون ان الحب والعدل من صفات الله جل جلاله.

نحن لسنا خالقين، بل نحن بشر فانون نتعرف الى العالم من خلال الاشياء المخلوقة.

وعندما نؤمن ونعبد لا يحق لنا القول باننا قادرون على ارغام الآخرين على الايمان والعبادة.

الحب والعدل من مبادئ الانسانية. وهما يتجليان في كل شئ ويبتان في كل مسألة. انهما نتاج الخليقة. ويتجلى الحب حتى في قران الفرس بالحصان.

والذي تستحوذ عليه مشاعر الحب والعدل هو العالم الحكيم. نحن عاجزون عن ابتداع العلم من لاشئ.

ليس بوسعنا الا ان نرى ونلمس العالم المخلوق وندرك تناسقه من خلال العقل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

# الفهرس


| | |
|---|---|
| كلمة فى تراث آبائى | 7 |
| الأقوال | |
| القول الأول | 11 |
| القول الثانى | 12 |
| القول الثالث | 13 |
| القول الرابع | 16 |
| القول الخامس | 17 |
| القول السادس | 18 |
| القول السابع | 19 |
| القول الثامن | 21 |
| القول التاسع | 22 |
| القول العاشر | 23 |
| القول الحادى عشر | 25 |
| القول الثانى عشر | 26 |
| القول الثالث عشر | 27 |
| القول الرابع عشر | 28 |
| القول الخامس عشر | 29 |
| القول السادس عشر | 30 |
| القول السابع عشر | 31 |
| القول الثامن عشر | 33 |
| القول التاسع عشر | 34 |
| القول العشرين | 35 |